مجلة علمية مُحَكَّمة تصدر عن مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

أديان

الإصدار ١٤/ يناير ٢٠٢١

الأديان في مواجهة الأوبئة والأمراض

ISSN:٢٢١٨ -٧٤٨٠
ثمن النسخة: ٣٠ ريال/ ١٠ دولار

تصدر عن مركز الدوحة الدولي
لحوار الأديان
ص. ب. ١٩٣٠٩ الدوحة - قطر

http://www.dicid.org/journals.php
dicid.admin@dicid.org
dicid.news@dicid.org
http://www.qscience.com/loi/rels

مباشر: +٩٧٤-٤٤٨٦٤٦٦٦
+٩٧٤- ٤٤٨٦٥٥٥٤

فاكس: +٩٧٤-٤٤٨٦٣٢٢٢
+٩٧٤-٤٤٨٦٩٩٠٠

DICID
مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
Doha International Center for Interfaith Dialogue

GEORGETOWN UNIVERSITY
School of Foreign Service in Qatar

مجلة أديان (دورية علمية محكَّمة)

هيئة التحرير

•د. إبراهيم صالح النعيمي
رئيس مجلس إدارة مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان ورئيس التحرير
•د. أحمد عبد الرحيم
محرر اللغة العربية، باحث بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
•د. سيناد مارهروفيتش
محرر اللغة الإنجليزية، محاضر في مركز سلطان عمر علي سيف الدين للدراسات الإسلامية (SOASCIS) ، جامعة بروناي دار السلام (UBD).

الهيئة الاستشارية الدولية

• د. رودني بلاكشيرت، قسم الدراسات الدينية والفلسفية، جامعة لاتروب، بنديغو، أستراليا
• د. ديفيد بيكويل، رئيس قسم اللاهوت والفلسفة، جامعة نوتردام، الولايات المتحدة الأمريكية
• د.جيمس كاستنغر، أستاذ الدراسات الدينية، جامعة ساوث كارولاينا، الولايات المتحدة الأمريكية
• د. إريك جيفري، أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة ستراسبورغ 2، فرنسا
• د. عائشة المناعي، مدير مركز محمد بن حمد آل ثاني لإسهامات المسلمين في الحضارة كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة
• د. إبراهيم كالين، أستاذ الدراسات الدينية، دكتوراه جامعة جورج واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية
• د. أوليفر ليمان، أستاذ الفلسفة والدراسات اليهودية، جامعة كنتاكي، الولايات المتحدة الأمريكية
• د. روزمير ماهموتسيهاجيتش، أستاذ بجامعة سرايفو، البوسنة والهرسك
• د. كنت أولدميدو، قسم الفلسفة والدراسات الدينية، جامعة لاتروب، بنديغو، أستراليا
• د. سيد حسين نصر، أستاذ الدراسات الإسلامية، جامعة جورج واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية
• د. إليزر سيغال، أستاذ بقسم الدراسات الدينية، جامعة كالغاري، كندا
• د. رضا شاه كاظمي، باحث، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، المملكة المتحدة
• د. أرفيند شارما، رئيس قسم الأديان المقارنة، جامعة ماكغيل، مونتريال، كندا
• د. علي بن مبارك، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعي تونسي

التصميم والتنفيذ

دار لوسيل للنشر والتوزيع

لوسيل
LUSAIL

أديان

مجلة علمية يصدرها مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

مجلة دولية محكمة نصف سنوية، تصدر باللغتين العربية والإنجليزية، متخصصة في دراسة كافة القضايا الإنسانية من منظور الأديان، كما تركز على الحوار بين الأديان والتواصل الحضاري بين مختلف الثقافات، من خلال نشر الدراسات والأبحاث الأكاديمية المتخصصة؛ وذلك لخلق حوار فكري وثقافي تفاعلي لتناول المحور الواحد من زوايا متعددة، مما يعطي تنوعا فكريّاً وثقافيًّا يُثري المجلة ببعدٍ تعدديّ نوعيّ مبدع في مجال الدراسات الدينية. كما توفر المجلة فضاء للتلاقي والتفاكر حول المشتركات العامة والمقاصد المشتركة للأديان، وذلك في عالم يتخلله سوء التفاهم الديني، وممارسات العنف، واختطاف التعاليم الدينية من قبل الأيديولوجيات السياسية.

﴿... **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾ (المائدة: ٤٨).

تجد مجلة أديان إلهامها في الرسالة العالمية للإيمان بإلهٍ واحد، في معناها الواسع، كما أنها تسعى لمشاركة مختلف الديانات التي لها مبادىء وقيم مشتركة في داخل هذا الإطار المفهومي الواسع.

وتشجع المجلة الدراسات المقارنة والتبادلات بين الأديان بروح الحوار والاغتناء المشترك. وهدفها هو الترويج للتفاهم بين أتباع الأديان، وبدراسة واكتشاف الأسس الدينية والروحية المشتركة بينهم، وعلاقاتهم البناءة المتبادلة في الماضي، والحاضر وفي المستقبل، ودراسة وتفهم أفضل لأسباب الصراعات بينهم، والتحديات التي يواجهونها، وإيجاد سبل التعاون فيما بينهم.

كما تود المجلة أن تحيي الأفق العالمي للإسلام وتؤكد عليه، وذلك برعاية دراسات في العلاقات بين الإسلام والديانات والحضارات الأخرى في مجالات التاريخ، والفنون، والدراسات الدينية. وفي هذا أيضاً مسعى لتفعيل الخطاب الفكري في الإسلام، وذلك في إطار ارتباط تفاعلي ومثمر بين الإسلام والديانات الأخرى.

المقالات والأبحاث المنشورة في مجلة أديان هي على مسؤولية كتابها بصورة كاملة، ولا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان. وهي تُنشر في إطار حوار مستمر حول الأديان، ولا تُؤخذ بأنها تعبر عن مواقف أي منظمة راعية للمجلة.

COVID-19

محتويات

افتتاحية العدد:

الأستاذ الدكتور إبراهيم النعيمي

رئيس مجلس إدارة مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان- رئيس التحرير ٦

حوار العدد:

مع فضيلة الشيخ الدكتور علي محي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ٨

الأبحاث:

الوباء والاحتراز في الفكر الإسلامي: تأملات في كتاب الترياق التميمي:

عائشة يوسف المناعي ٣٤

الأديان وتحدّيات مسألة كورونا: مقاربة في ضوء النصوص الدينيّة:

حيدر حبّ الله ٤٢

التخدير والتعقيم والتطعيم في الحضارة العربية الإسلامية:

شريف الأنصاري ٦٠

فاعلية الطاقة الروحية في مُواجهة الأوبئة:

بشير خليفي ٧٦

عبقرية الإسلام في وقاية الإنسان وبناء الصحة العقلية والنفسية زمن انتشار الوباء والآلام:

علاء الدين آل رشي ٩٦

موقف الإسلام من الأمراض والأوبئة وفق فقه الميزان:

علي محي الدين القره داغي ١٠٨

الأوبئة والطواعين عند المتكلِّمين:

رامي إبراهيم البنَّا ١٣٤

هل يُطَوِّرُ الوباء مَسَار العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة؟:

عبّاس الحلبي ١٥٠

السيرة الذاتية للكتاب ١٧٦

افتتاحية العدد

بين يديك أيها القارئ الكريم **العدد الرابع عشر من مجلة أديان**، الصادرة عن مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، والذي يحمل عنوان **(الأديان في مواجهة الأوبئة والأمراض)**. ويزخر هذا العدد بمجموعةٍ من الأبحاث المتنوعة في التوجه والفكر والثقافة باللغتين العربية والإنجليزية لباحثين جادين في علم الأديان.

إن العلاقة بين الدين والمرض علاقةٌ وثيقة؛ فقد وُضع حفظُ النفس من أولويات مقاصد الدين التي أعطت الحفاظ على صحة الإنسان، والاهتمام بها، ووقاية النفس الإنسانية جسديًّا أولويةً كبيرة لا تقل عن الجانب الروحي والقيمي، وقد أشارت لذلك النصوص الدينية؛ ففي الإسلام يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً**»، وفي المسيحية كانت الكنائس وقتَ تفشي الأوبئة تصدر تعليماتها الدّينية للاهتمام بالمرضى ورعايتهم في الأديرة والمستشفيات، وفي الكتاب المقدس (رسالة جيمس الإصحاح الخامس: ١٤-١٥). «**أيوجد بينكم شخص مريض، فليدع شيوخ الكنيسة، وليصلوا عليه، وليدهنوه بالزيت باسم الرب، ثم إن صلاة الإيمان سوف تبرئ المريض، ولسوف يرفعه الرب إلى أعلى، وإذا كان قد ارتكب أوزارًا فسوف تغفر له**».

وإن كان المرض يُوصف بأنه خلل يصيب الإنسان، فلا شك أنه لا يصيب

الجسد وحده، بل يتعداه ليصيب روحه أيضًا، وكافة الجوانب الأخرى المتعلقة بحياته، وهنا يلتقي العلاج حتمًا بالدين في أحد جوانبه.

ولعل ما يمر به العالم اليوم من أزمة وبائية بظهور **فيروس كورونا** وانتشاره في بقاع العالم؛ ليَطرحُ سؤالًا مهمًّا عن موقف الدين بمؤسساته وعلمائه، ودوره في مواجهة الأوبئة والأمراض؛ خاصةً وأن النفس الإنسانية تميل إلى تصديق أن الشّر الذي يصيبها هو نوعٌ من العقاب الإلهي أو صورة من صور غضبه.

من هذا المنطلق اختارت **مجلة أديان** التي يصدرها **مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان** طرْحَ هذا الموضوع في هذا العدد؛ تحقيقًا لرؤية المركز الإنسانية الشاملة، والتي ترى أن كل قضايا الإنسان تحكمها علاقةٌ وثيقة بالدين، كمؤثِّرٍ فيها، وطارحٍ لأوجهٍ عديدة للتعامل معها وإيجاد الحلول لها.

وسوف يطالع القارئ الكريم في هذا العدد مواضيع ورؤى متعددة لموقف الأديان ودورها في مواجهة الأوبئة والأمراض، وذلك في أوراق بحثية متنوعة حرصنا في اختيارها الإحاطة بهذا الموضوع المهم، والذي لم نعلم أنه تمَّ تناوله من قبل كموضوعٍ رئيسي لمجلةٍ علمية يرتكز على بيان علاقة الأديان بالأمراض خاصة في زمن انتشار الأوبئة.

ونتمنى للقارئ الكريم أن يجد في الأبحاث المطروحة ما يثري ثقافته ويزيد علمه.

الأستاذ الدكتور إبراهيم النعيمي
رئيس مجلس إدارة مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان - رئيس التحرير

حوار مجلة أديان مع

فضيلة الشيخ الدكتور علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

أجرى الحوار: أحمد عبد الرحيم

- أديان: في البداية نود من فضيلتكم قبل مناقشة موضوع الأديان ومواجهة الأوبئة والأمراض أن نطرح السؤال المتكرر على الألسنة، وهو كذلك ما يعتقده الكثير من الناس، بالانفصال التام بين الدين والعلم (وأقصد هنا الطب)، فهل هناك حقًّا انفصال كما يزعم البعض؟ وهل يمكن لنا الاعتماد فقط على النصائح والتوجيهات الدينية في مثل أزمة مثل تفشي فيروس كورونا؟

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: أود أن يكون جوابي شاملاً لأمرين:

الأمر الأول: الجانب العلمي الذي تترتب عليه التصورات، والعلاج الصحيح للأوبئة، ونحوها، وفي هذا الجانب نستطيع نحن المسلمين بكل فخر واعتزاز، وعن بينة وبرهان أن نقول: إنه لا يوجد دين، ولا نظام في العالم أولى عناية قصوى بالعلم والقراءة مثل الإسلام، فلم نجد في أي دستور (حتى في عالمنا المعاصر) تنص أول مادة منه على وجوب القراءة والعلم كما هو الحال في الإسلام حيث تنزل أول آية من السماء إلى الأرض ومن الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

والإنسان العاقل المتدبر يقف متعجباً في البداية أمام هذه الآيات التي تأمر أول ما تأمر بالقراءة المطلقة لكل شيء، للكتاب والكون وكل ما فيه خير ونفع للناس، ثم تبين أهمية العلم والتعلم، وأن قيمة الإنسان بما يعلم، فقال تعالى: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾**[2].

والقرآن الكريم أولى عنايته القصوى بالعلم والفكر، والنظر، والبرهان، والحكمة، والفقه، والتدبر، ونحوها، حيث ذكرها في عدد كبير من آياته فقد ذكر كلمة العلم ومشتقاته أكثر من سبعمائة مرة بتعبيرات وأساليب مختلفة، كما ذكر مشتقات الفكر ثماني عشرة مرة، والفقه إحدى وعشرين مرة، والحكمة عشرين مرة، والبرهان سبع مرات، ومشتقات العقل تسعاً وأربعين مرة، وأما العقل نفسه فقد عبر عنه القرآن من خلال أولى الألباب التي تكرر ست عشرة مرة، وأولى النهى مرتين، ناهيك عن كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر، مثل (انظروا) و (ينظرون) ونحوها.

والسنة النبوية فصلت تفصيلاً ما بعده من تفصيل حيث خصص كل واحد من كتب الصحاح والسنن وكتاباً حافلاً أو أبواباً لموضوع العلم، فقد خصص الإمام البخاري كتاباً خاصاً من صحيحه للعلم، واشتمل كما يقول الحافظ ابن حجر في شرحه على مئة حديث وحديثين[3]، وهكذا، بل إن كتب السنة تذكر أحاديث كثيرة تتعلق بالعلم ولكن في كتب أخرى مثل كتاب الطب أو التداوي، إضافة إلى أن بعض الحفاظ والمحدثين أفردوا كتاباً خاصاً بالعلم مثل الحافظ الفقيه ابن عبد البر في كتابه: جامع بيان العلم وفضله[4]، والحافظ الخطيب البغدادي في كتابه (الفقيه والمتفقه).

فقد تناولت الآيات الكريمة والأحاديث الثابتة منزلة العلم والعلماء، وأهمية العلم التجريبي، والعلم النافع، من خلال تكوين العقلية العلمية القائمة على البحث عن الدليل والبرهان، ومحاربة الأمية والتخلف، والحملة الشديدة على الأوهام والخرافات والتقاليد البالية، وتعلم اللغات، واستخدام أسلوب الإحصاء، والتخطيط وإقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية، والنزول عند رأي الخبراء وأهل الذكر والاختصاص، والاستفادة من كل قديم صالح وكل جديد نافع، كما تناولت هذه الآيات القرآنية، والأحاديث الثابتة أخلاقيات العالم من الشعور بالمسؤولية والأمانة العلمية والتواضع، والعزة، والعمل بمقتضى العلم، وعدم كتمان العلم وكذلك آداب العالم والمتعلم، وواجبات الدولة والمجتمع نحو العلم والعلماء[٥] وضرورة التقدم العلمي الشامل للجوانب الفكرية والثقافية والحضارية والتقنية، وأن قوة العلم تقع في أعلى مراتب القوى التي أمر الله تعالى بإعدادها حتى تبقى الأمة قوية البنيان قادرة على أداء الشهادة والأمانة في هذه الأرض المستخلفة عليها.

ونتيجة لهذه الأهمية قفزت العلوم في ظل الإسلام قفزة عالية وتحققت الحضارة الإسلامية في فترة قصيرة شهد بتطورها في ذلك العصر وتقدمها كل المنصفين، بل برهن على ذلك واقع المسلمين في تلك العصور الذهبية، وقد كتب عن ذلك الكثيرون منهم المستشرق آدم متز في كتابه: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام[٦] فذكر أنه في القرن الثالث الهجري ظهرت مجموعة أخرى من الفنون والعلوم الدنيوية، والعناية الكبرى بالكتب والمكتبات، حتى استدعى السلطان نوح بن منصور الساماني: الصاحب بن عباد (ت٣٨٤هـ) ليوليه وزارته، فكان مما اعتذر به

أنه لا يستطيع حمل كتبه التي لا تحمله أربعمائة جمل، كان فهرس كتبه في عشرة مجلدات[٧]، وقد نبغ المسلمون في مختلف العلوم - بما فيها الطب وغيره - وأبدعوا فيها، فكونوا حضارة رائعة رائدة في عصورها. ولذلك لا يمكن فصل الإسلام عن العلم، والطب، ولكن الإسلام يقوم على كفتي الميزان الذي أنزله الله تعالى مع القرآن الكريم، فالكفة الأولى هي الإيمان القوي والتوكل على الله تعالى، والسكينة والصبر والاستقرار، وعدم الاضطراب والقلق من خلال الإيمان به ﴿**لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[٨].

والكفة الثانية: هي كفة الأخذ بالأسباب والسنن التي خلقها الله تعالى مؤثرة، ويدخل في هذه الكفة جميع الجوانب العلمية والطبية والوقائية، والاحترازية ونحوها، فهذه أيضاً أمر الله تعالى ورسوله بها في آيات وأحاديث كثيرة.

فالمسلم يجب عليه الالتزام بالتوجيهات الشرعية والطبية؛ لأن حماية النفس من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، فلا يجوز تعريضها للهلاك والضرر.

- أديان: اتخذت كافة الدول في بداية تفشي فيروس كورونا تدابير احترازية للوقاية من العدوى وانتشارها، ومن بينها منع الصلاة في المساجد، وقد كنتم من أوائل من أيدوا هذا الأمر. فهل يوجد في الشريعة الإسلامية نصوص تؤيد ذلك، خاصة وقد وجدنا من يعترض على هذا بقوله: إن كانت الأسواق والشركات لم تُغلق ولكن وضعوا ضوابط لها منعًا للاختلاط والتقارب الاجتماعي؛ فلماذا لم يتم ذلك مع دور العبادة؟

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: إن التدابير الاحترازية التي اتخذت وفرضت من الحجر الصحي أو المنزلي، أو منع التجوال، وغيرها من الإجراءات الاحترازية، كلها مشروع بل مطلوب شرعاً حماية لمقصد النفس ودرءاً للتهلكة، وقد أفتينا بوجوب الالتزام بالضوابط الصحية والإجراءات الاحترازية والوقائية اللازمة.

أما إقفال الجوامع فلا يجوز في نظري إلا إذا انتشر الوباء، وصدر أمر من أولي الأمر بذلك، والمعيار في ذلك هو صدور أوامر حكومية أو صحية بغلق المدارس والجامعات- وهذا ما حدث - وعندئذ يجوز غلق المساجد في المدن والمناطق التي يخاف من انتشار الوباء فيها ظن وصدر أمر بغلقها فيها، أما بقية المناطق التي لم تغلق فيها المدارس والجامعات فيجب أن تبقى المساجد والجوامع مفتوحة.

وفي ظل انفراج الوباء في بعض الدول، أفتينا مباشرة بضرورة فتح المساجد والجوامع في كل البلاد والمدن والقرى التي تسمح فيها السلطات الصحية بالتجمع العام وفقاً للقواعد الصحية، لأداء صلوات الجمعة والجماعات والتراويح، والاعتكاف فيها، مع

وجوب الالتزام بالضوابط الصحية والإجراءات الاحترازية والوقائية اللازمة؛ وذلك لأن الأصل العام باتفاق الجميع هو فتح الجوامع والمساجد لتعمّر بذكر الله تعالى، وإقامة الجمع والجماعات والتراويح، والاعتكاف، ولكن بسبب الخوف من تفشي جائحة كورونا (كوفيد ١٩) صدرت الفتاوى منا ومن غيرنا بوجوب الالتزام بالقواعد الصحية والتوجيهات المانعة من التجمع حفاظاً على مقصد النفس، وكل الفتاوى اعتمدت على أن ذلك كان من باب الضروريات التي تبيح المحظورات، ولكنها حسب النص القرآني مقيدة بأن تقدر بقدرها فقال تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ سورة البقرة / الآية ١٧٣، حيث حدد عدم الاثم في ارتكاب محظور لضرورة لا يتجاوز فيها

الإنسان فلا يكون باغياً ومعتدياً، ولا متجاوزاً حدود الضرورة.

ولا شك أن الله تعالى جعل من أهم مقاصد شريعته الحفاظ على الدين، والنفس وغيرهما وتنميتهما لذلك فالأصل أن تمضي القضيتان معاً دون تعارض، بل في انسجام، فعلينا أن نؤدي واجبات ديننا، كما علينا أن نحافظ على مقتضيات الحفاظ على أبداننا وعقولنا، وغيرها، ولكن قد تقع مشكلة في الجمع، وهنا يأتي لطف الله تعالى ورحمته بعباده، وعنايته لضعفهم فيتسامح في ترك بعض العبادات، أو يتجاوز عما هو الفرض والواجب، ومن هذا الباب رخصة النطق بالكفر عند الإكراه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[٩].

وقد استُنبط من هذه الآية الكريمة، ومن غيرها، ومن السيرة النبوية المشرفة أن الخوف يكون عذراً مقبولاً لترك بعض الفرائض والواجبات إذا توفرت شروطه، مثل ترك الجمعة والجماعة لأجل الخوف من انتشار الوباء بين المصلين، فقد ذكر فقهاؤنا أن الخوف من الأعذار المقبولة لترك الجمعة والجماعات، مثل أن يخاف المرء هلاك نفسه، أو إتلاف بعض البدن، أو الاعتداء عليه، أو ضربه ضرباً مؤذياً، أو خطفه وأسره، أو تعرضه لهجوم السباع عليه، أو أن يخاف المرء ضياع ماله، أو أن يخاف على أهله وولده، فيجوز ترك الذهاب إلى الجامع للذي يتعرض فيه لهذه الحالات، بل إن الفقهاء قالوا بجواز ترك الجمعة إذا خاف من أن تأكل السباع دابته، وكل ذلك مشروط بأن يكون الخوف محققاً، وليس مجرد وهم؛ لأن ترك الواجب لا يجوز إلا عند غلبة الظن، أو طلب أولي الأمر وأهل الاختصاص.

- أديان: رأينا أن الجانب الاقتصادي- وخاصة على العاملين- كان من أكبر الآثار الصعبة لمثل هذا الوباء، ما هي توجيهاتكم من الجانب الاجتماعي

التكافلي الذي حثت عليه الأديان في مثل هذه الظروف؟ وكذلك توجيهاتكم لأصحاب الأعمال الذين يجدون أنفسهم مضطرين لإجراءات صعبة تخفيفًا من خسائرهم؟

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: لقد وردتنا خلال فترة الأزمة، عدة استفسارات وأسئلة كثيرة، تتعلق بهذا الجانب، وقمت بالرد عليها، نلخصها فيما يلي:

١- التبرع بالدم والمال، فلا شك أن التبرع بالدم لإنقاذ المرضى والجرحى من أهم القربات، ويساعد على بقاء حياتهم، فقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[١٠]، وكذلك التبرع بالمال فهذا من الصدقات التي تضاعف الله تعالى لصاحبها الأجر والثواب إلى سبعمائة ضعف بإذن الله تعالى.

٢- العمل مع فرق المتطوعين لمساعدة كبار السن، من الأعمال الطيبة الداخلة في قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[١١]، كما أنه يعطي صورة طيبة للمسلم بانه يحب الخير للجميع ويرحم المستضعفين، ويساعد كبار السن، ولذلك سيكون له أجر سواء كان موجهاً للمسلمين أو غيرهم، وبخاصة فقد وردت أحاديث ثابتة تحث المسلمين على الرحمة بكبار السن والضعفاء، وديننا هو دين التعاون بل الإيثار.

٣- تعجيل الزكاة لأجل الفقراء الذين انقطع وسائل رزقهم بسبب كورونا؛ فقد أدى وباء كورنا إلى تفاقم الفقر في العالم الإسلامي وبخاصة في الدول التي تفشى فيها، حيث تم حظر التجوال، وإغلاق معظم المناطق الحيوية ومجالات العمل، مما أدى بلا شك إلى زيادة حاجتهم إلى الأموال لشراء حاجياتهم الضرورية، فازداد على ضعفهم وفقرهم مشكلة المرض، أو احتمالية المرض، وعدم العمل مع كثرة أعباء الحياة؛ لذلك أفتينا بجواز تعجيل الزكاة لسنة أو أكثر

أو أقل لوجود أدلة من السنة عليه، ما دام المزكى يملك النصاب ، لأجل مصلحة الفقراء كما هو الحال اليوم، فإذا بلغ المال النصاب (وهو قيمة ٨٥ جراماً من الذهب الخالص، أي في حدود ٣٬٦٤٠ دولار بسعر اليوم ٢٧ مارس ٢٠٢٠م) يجوز لصاحب المال تعجيل إخراج الزكاة. وهذا رأي جماهير الفقهاء من الحنفية، والشافعية، والحنابلة، ومروي عن بعض الصحابة منهم سيدنا علي رضي الله عنه، وعن الحسن البصري وسعيد بن الجبير، والزهري، والأوزاعي، وقول اسحاق بن راهويه، وأبي عبيد القاسم ابن سلام، وغيرهم[١٢]. وأكدنا على أن تعجيل الزكاة في ظل هذا الوباء القاتل الذي عطل معظم الأعمال، وجعل حاجيات الفقراء مضاعفة، وظروفهم أكثر صعوبة، أصبح من المستحبات، وأفضل من التأخير إلى شهر رمضان المبارك، لأن شدة الحاجة مقدمة على فضيلة الزمن، وأن أفضل الصدقات والزكوات هي الصدقة الخالصة لله تعالى التي تؤدي إلى إنقاذ الفقراء دينهم، أو أنفسهم أو أعراضهم، فقال تعالى: (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)[١٣] ثم الصدقة التي تعطى لمن هو أحوج، كما أن الأفضل هي أجود الصدقات، وأحبها إلى صاحبها فقال تعالى: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[١٤]، كما أن أفضلها أن تصل إلى مرحلة الإيثار فقال تعالى: «**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١٥]؛ لذلك دعونا أهل الخير جميعاً لتعجيل أدء زكواتهم بل للإيثار بكل ما يمكنهم لإنقاذ هؤلاء المستحقين في ظل الأوبئة والفتن والبلاء العام، فقال تعالى: ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا**

يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»[١٦].

٤- جمع الزكاة لصرفها، مباشرة أو من خلال وزارة الصحة في مشاريع لمواجهة تداعيات وباء كورونا، فقد أفتينا للجميعات الخيرية والمدنية في عدة دول، بجواز جمع أموال الزكاة لصالح المرضى الفقراء غير القادرين على العلاج، مع فرض الرقابة على ما يجمع من أموال زكاة؛ بأن يكون هناك نوع من الرقابة، والتدقيق والضبط الشرعي لمن يدفع زكاته للجمعية بأنها تصل إلى المستحقين.

٥- استبدال مشروع تجمع إفطار الصائم إلى توزيع الوجبات أو السلال الغذائية على الأسر المحتاجة بسبب تداعيات وباء كورونا، فقد نفذت جمعية قطر الخيرية، ونحوها من الجميعات الخيرية في الداخل والخارج، بناء على فتوانا وفي مثل الحالة التي يعيشها المسلمون من الحجر الصحي أو المنزلي، أو منع التجوال، وغيرها من الإجراءات

الاحترازية (وكلها مشروع بل مطلوب شرعاً حماية لمقصد النفس ودرءاً للتهلكة) فإن مَنْ قام بتجهيز سلة الطعام، مما يفطر به الصائم من القمح (أو الطحين) واللحم والرز ونحو ذلك، بل حتى قيمة إفطاره، فإنه ينال أجر ما ورد في الحديث بإذن الله تعالى. فالعبرة بالنيّات والمقاصد، وبتحقيق الهدف، بل إن الصائم المحتاج يستفيد من سلة الطعام لنفسه وعائلته أكثر من أن يأكل طعاماً جاهزاً، وفعلاً تحقق تفاعل طيب مع مشروع إفطار الصائم لقطر الخيرية من خلال سلات الطعام، وبقية مشاريعها.

٦- الركود الاقتصادي: فمن خلال فتاوانا وجهنا وطالبنا بضرورة التعاون بين أصحاب الأموال المسلمين، فيعطي بعضهم البعض القروض الحسنة، أو التمويلات الشرعية بربح منخفض، فهذا هو ما ندعو إليه المسلمين أصحاب الأموال أن يتكافلوا ويتضامنوا ويتعاونوا، فقد قال تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[١٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: **﴿إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ﴾**[١٨]، فهذا هو المطلوب أولاً في ظل هذه الظروف الصعبة التي يمر بها العالم. وأن تُعطي الدولة قروضاً بدون فائدة فهذا أمر طيب، ينبغي لشركات المسلمين أن تستفيد من ذلك، وهكذا الحال فيما إذا كانت الدولة تعطي الرواتب أو الأجور بدون فوائد. أو أن تقرض الدولة أو البنك قروضاً بدون فائدة لمدة عام، ثم تشترط للعام الثاني فائدة، ثم في العام الثالث فائدة أكثر، ففي هذه الحالة فلا مانع في ظل الظروف الحالية أن تقبل بالقروض لمدة سنة واحدة مع الإصرار على ردها قبل أن تفرض الفائدة على المقترض،

وهـذا جائـز؛ لأنـه ليـس مشروطـاً لنفس السنة.

٧- التصـدق بقيمـة العمـرة في تفريـج الكربـات أو سـدّ حاجـات المحتاجين، أو دفـع ديـون الغارمـين، أو إعفـاف الشـباب مـن الجنسـين الذيـن يتوقـف زواجهـم عـلى المال، أو إنشـاء مسـكن لمحتـاج أو نحـو ذلـك، فمـن كان قـد نـوى العمـرة،ـ وصرف قيمـة عمرتـه التـي كان يصرفهـا في العـام المـاضي، أو في هـذا العـام كان لـه أجـر العمـرة بالكامـل، وقـد يكـون أكثـر بـإذن الله تعـالى. وقـد أثبتـت وزارة الحـج والعمـرة أن الذيـن اعتمـروا في العـام ١٤٣٩ هـ قـد تجـاوز ١٨ مليـون و ٣١١ ألـف معتمـر مـن الداخـل والخـارج، والدراسـات العلميـة تشـير إلى أن معـدل الـصرف ـ مـع ملاحظة ارتفـاع قيمـة المسـكن في المواسـم ـ لا يقـل عـن ٢٠٠٠ دولار، وبالتـالي فـإن معـدل الـصرف العـام يتجـاوز ٣٦ مليار دولار و ٦٢٢ مليون دولار.

٨- إنشـاء صنـدوق تعـاوني اجتماعـي عـلى مسـتوى كل دولـة، وعـلى مستوى الأمة:

أ- فقـد طالبـت بإلحـاح أن ينشـأ صنـدوق تعـاوني شـعبي يشـارك فيـه أصحـاب الأمـوال وجميـع الـشركات، تحـت إشراف هيئـة مسـتقلة تديـره جبايـة، وصرفـاً، ولكـن تفـرض الدولـة نسـبة مـن الأربـاح أو الأموال لصالـح هـذا الصنـدوق لعـلاج آثـار كورونا الاقتصادية.

ب- وطالبـت أيضـاً بإنشـاء صنـدوق عـلى مسـتوى العـالم الإسـلامي، بالتنسـيق مـع بنـك التنميـة الإسـلامي، وتحـت رعايـة منظمـة التعـاون الإسـلامي للمسـاهمة في تخفيف آثار كورونا الاقتصادية.

- أديان: ظهرت نتيجة لهذه الأزمة العديد من كتب التراث العربي التي تتكلم عن الأوبئة، ولعل أشهرها تداولا بين الناس كتاب (بذل الماعون في فضل الطاعون) للحافظ ابن حجر العسقلاني.

هذه الكتب في الحقيقة أثارت جدلا كبيرا؛ فترك الكثيرون ممن يهاجمون الإسلام الأحاديث التي دعا فيها النبي

صلى الله عليه وسلم للحظر في وقت الطاعون، وأخذوا أحاديث أخرى تقول: «الطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس للكافرين». ما رأيكم في هذا الجدل؟

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: الراجح هو أن لفظ الوباء يقصد به كل مرض معدٍ، وأن الطاعون أو كورونا اليوم (كوفيد ١٩) ونحوه داخل في الوباء، وحينئذ فالعلاقة بين الوباء والطاعون عموم وخصوص مطلق، فكل طاعون وباء، ولكن الوباء ليس منحصراً في الطاعون[١٩]، وقد ذكره الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث، فقيل: وما الطاعون؟ فقال: «غدة كغدة البعير تخرج في المراق والإبط»[٢٠]، وكان يسمى وباء الموت الأسود في الغرب، وبين معظم الناس.

إن تاريخ الطاعون قديم فقد حصد مئات الملايين من البشر، ومهما كانت الأمور فإن التاريخ يشهد

بسبق الإسلام في الحجر الصحي من خلال الأحاديث الصحيحة، وتصرفات الخليفة الراشد عمر الفاروق رضي الله عنه، وعمرو بن العاص رضي الله عنه وغيرهما، وأن عمرو بن العاص هو أول من نادى بالتفرق والتباعد الاجتماعي، وكذلك سبق المسلمين في معرفة أن الطاعون مر ض معدٍ فيجب الابتعاد الاجتماعي، ولكن لم يصلوا جميعاً إلى علاج ناجح، ولقاح مانع إلا في القرن التاسع عشر الميلادي على يدي العالم السويسري ألكسندر يرسن في عزل الميكروب المسبب للطاعون، واستحدث علاجاً لمصل مضاد للمريض، وذلك عام ١٨٩٤م.

وقد أولى العلماء المسلمون عناية قصوى بالطاعون سواء كانوا من علماء الفقه أم العقيدة، أم الطب، فألفوا ما زاد على ٧٠ مؤلفاً، وتحدث شراح الحديث عن الطاعون حسبما ورد في الأحاديث التي رواها المحدثون في صحاحهم وسننهم ومسانيدهم، ومصنفاتهم، فأفاضوا فيه القول، وذكروا أحكامه.

فعرف الإمام النووي الطاعون بأنه قروح تخرج في الجسد، وتكون تحت الآباط أو المرافق أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب، ويسود ما حواليه، أو يخضرّ، أو يحمرّ حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان القلب والقيء[٢١].

وبين ابن قيم الجوزية أن العلاقة بين الطاعون والوباء علاقة عموم وخصوص، فكل طاعون وباء، ولكن ليس كل وباء طاعوناً، ثم قال: والطاعون يعبر به عن ثلاثة أمور: أحدها: هذا الأثر الظاهر وهو الذي ذكره الأطباء. والثاني: الموت الحادث عنه وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله صلى الله عليه وسلم:«**الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**»[٢٢]. والثالث: السبب الفاعل لهذا الوباء...»[٢٣].

إن الاسلام يعتبر هذه الأوبئة من

سـنن الله التـي تعـم المسـلمين وغيرهـم، فتحمـل في طياتهـا الابتـلاء والتذكـير والتخويـف مـن انتشـار الفسـاد والظلـم والطغيـان والفواحـش في الأرض للتـضرع إلى الله تعـالى: ﴿فَلَـوْلَا إِذْ جَاءَهُـم بَأْسُـنَا تَضَرَّعُـوا وَلَٰكِـن قَسَـتْ قُلُوبُهُـمْ وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢٤].

إن الإنسـان في نظـر الإسـلام أعظـم وأكـرم وأشرف مخلـوق عـلى وجـه الأرض، خلقـه بيديـه، ونفـخ فيـه مـن روحـه، وأكرمـه، ومنحـه أجمـل صـورة وأحسـن تقويـم، فقـال تعـالى: ﴿لَقَـدْ خَلَقْنَـا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَـنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢٥].

- أديان: مما هو واضح أن فيروس كورونا (كوفيد ١٩) قد أثّر على العالم في جميع جوانب الحياة؛ اجتماعيا واقتصاديا، وحتى على التعليم وممارسة الشعائر الدينية.

برأيكم ما هي الدروس المستفادة من مثل هذا الوباء، وذلك من حيث تأثيره على القيم الدينية، وحاجة الإنسان لارتباطه بربه في السرّاء والضراء؟

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: حقيقة دروس كثـيرة، وعـبر متنوعـة ومختلفة، ومن أهمها:

١) ضعـف الإنسـان أمـام هـذا الفيروس الصغير جداً.

٢) الرجوع إلى الله تعالى.

٣) عدم طغيان الإنسان.

٤) ضرورة التعـاون، والتكافـل، والاخوة الإنسانية.

٥) أهميـة العلـم ودوره في خدمـة الإنسـان، وبالتـالي فمهـما يـصرف مـن الأموال في سبيل العلم فهو قليل.

٦) أهميـة النظـام الصحـي والـصرف عليه بسخاء.

- أديان: إلى أي مدى- من وجهة نظركم- يمكن أن يكون للدين أثره في تجاوز الأزمات، وخاصة مثل هذه الأزمة العالمية التي لم تفرق بين كل من يعيشون على هذا الأرض؟

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: الدين ضرورة للفـرد والمجتمـع، حيـث

تكاد الدراسات الاجتماعية والنفسية تجمع على أن الدين فطرة كامنة داخل النفس، وضرورة من ضرورات المجتمع والحياة، لأنه يوجه الفرد نحو الالتزام بالقيم التي تدفعه إلى الصفاء، والعمل والبناء والتعايش مع الآخرين وتكامل المقاصد والأهداف، فالدين بصورة عامة والإسلام بصورة خاصة يقوم بضبط حياة الفرد، وتنمية ضميره، وصياغة شخصيته، وتحقيق تماسك الجماعة، والتماسك الاجتماعي من خلال الترابط والتقارب والألفة والقوة بين أبناء المجتمع.

كما أنه يقوم بتصحيح القانون الأخلاقي في المجتمع وضبطه من أجل تحقيق الخير، ودرء الشر ونشدان الكمال المطلق، يقول الفيلسوف المعروف(كانت): «**وجود الذات الإلهية في أعماق النفس الإنسانية التي تشعر بأن نشدان الكمال مطلوب عقلي فطري، فلا بدّ إذن من مبدأ على تحقيق التوازن بين الفضيلة والرذيلة،مبدأ تخضع الطبيعة لإرادته على وفق قانون عادل،وما ذلك إلاّ خالق الطبيعة والإنسان جميعاً،فكان وجود الله هو المطلب الأخير الذي لا بدّ من تسليمه لتصحيح القانون الأخلاقي**»[٢٦].

وهناك الكثيرون من علماء الاجتماع والنفس يصرحون بضرورة الدين للمجتمعات حتى إن أبا علم الاجتماع الغربي دوركايم يقرّ بأنه «لا يمكن لأية جماعة بشرية أن تستغني عن الدين،ولهذا يستحيل أن نعيش بلا دين»[٢٧].

وقد عرف فلاسفة الغرب أن الأخلاق لا تقوم إلاّ على دين، وأن حياة الإنسان لا تستقيم إذا انحصرت في دائرة الحسيات، وقد حاول بعض المفكرين (المذهب الأخلاقي الطبيعي) إقامة الأخلاق على أسس فلسفية مادية،ولكن هذه المحاولات لم تحقق سوى الفشل والإفلاس،وقد اعترف بذلك كبار المفكرين الغربيين[٢٨].

إن الحفاظ على مقصد الدين يترتب عليه ما يأتي:

١- تحقيق الحرية الدينية لكل فرد، وحماية معتقده من الإكراه فقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢٩] وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٣٠] وبالتالي فكل إنسان في ظل الشريعة يعيش في ظل الأمن والأمان الروحي دون إكراه ولا اعتداء، ولا ظلم ولا إيذاء بسبب دينه.

٢- قيام كل إنسان بأداء شعائره الدينية دون خوف ولا وجل.

٣- القيام بمقتضيات دينه من الالتزام بالعقود والعهود ورعاية حقوق الآخرين والالتزام بالقيم السامية والأخلاق العالية في التعامل مع الناس أجمعين، وهذا الالتزام يلتزم منه تحقيق الأمن للجميع، والآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة في القيم والأخلاق الفاضلة والقول الأحسن والفعل الأحسن والحوار بالتي هي أحسن والصبر الجميل، والهجر الجميل وكظم الغيظ والعفو عن الناس أكثر من أن

تحصى في هذه العجالة.

٤- ومما يتعلق بهذا الجانب الديني في الإسلام هو أن الإسلام يعترف بجميع الأديان السماوية وبجميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل لا يتم إيمانه إلا بذلك، كما قال الله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[٣١]. كما أنه يؤمن بالإخوة الإنسانية ويركز عليها، وهي أخوة جامعة تؤكد أن أصل البشرية واحد، «**الناس بنو آدم وآدم من تراب**»[٣٢]، وفي رواية صحيحة أخرى بلفظ «**الناس من آدم وآدم من تراب**»[٣٣].

٥- ضرورة الحفاظ على سلامة الفكر والتصورات والابتعاد عن الإفراط والتفريط والغلو في كل ما يتعلق بالدين والأنشطة المرتبطة به، فالإسلام أمرنا بتحقيق الوسطية والاعتدال والسير عليه فقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**﴾[٣٤]

- أديان: بعد معاناة كبيرة ظهرت العديد من اللقاحات للوقاية من فيروس كورونا، وبنسب متفاوتة في فاعليتها، لكننا نرى الدول تتجه إلى التخيير للناس في أخذ اللقاح أو عدم أخذه. هل للدين رأيه في (وجوب أو جواز) أخذ اللقاحات؛ باعتبار أن التهاون في ذلك قد يؤثر على حياة الإنسان والآخرين كذلك.

أ.د. علي محيي الدين القره داغي: يقوم العلاج بصورة عامة في الإسلام على كفتي الميزان.

أ- **الكفة الأولى:** كفة العقيدة والإيمان بالله تعالى وبالقضاء والقدر، حيث يؤمن المسلم بأن الله هو الخالق البارئ القادر على كل شيء، وأنه «لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا»[٣٥]، وأنه الشافي المعافي ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا**

﴿هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٦]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تؤدي إلى أن يكون المؤمن في أمن وأمان، ويزول عنه القلق والاضطراب، ويستقر قلبه السكينة، فلا يصاب بالجزع والهلع، كما يحدث اليوم في معظم بلاد العالم، هذا الإيمان يعالج الإنسان ويحقق له الأمن والسكينة، ويدفع عنه الأمراض النفسية الناتجة عن القلق والاضطراب والاكتئاب، وأن ذلك بلا شك يساعد العلاج أيضاً كما يقول المختصون. ويدخل في هذه الكفة التضرع إلى الله تعالى والصلوات، والأدعية المأثورة والرقية الشرعية، والصدقات ونحوها.

ب- **الكفة الثانية**: الأخذ بجميع الأسباب الممكنة من الحمية والوقاية والعلاج، فالله تعالى الذي هو القادر على كل شيء وضع لكل شيء من مخلوقاته سنناً وأسباباً، وأمر عباده بأن يلتزموا بها، حيث نهى الله تعالى عن إلقاء النفس إلى التهلكة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣٧]، وأمر الله تعالى بالأخذ بالأسباب، وربط بها النتائج، فقال تعالى في قوة ذي القرنين: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا*فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[٣٨]، ثم كرر ذلك فقال«ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا»، وذكر الله تعالى أن الذين يدخلون النار لم تبق لهم حيلة؛ لأنهم تقطعت بهم الأسباب، حين كانت أمامهم ـــ لما كانوا في الدنيا ـــ الأسباب الموصلة إلى الجنة، المانعة من دخول النار، فقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[٣٩].

وقد تكرر لفظ» سبب» معرفاً ونكرة خمس مرات، فقال تعالى في ملك ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[٤٠]، حيث يدل على أن أسباب تمكينه وقوته أنه أخذ بالأسباب المؤدية إلى القوة والتمكين، واتبعها في حياته فوفقه

الله تعالى وحقق مقاصده، ثم كرر الله تعالى أن ذا القرنين أتبع أسباباً مختلفة عندما اتجه نحو المغرب، ثم أتبع أسباباً متغايرة عندما اتجه نحو المشرق، فهذه الآيات التي تكرر فيها لفظ «سبب» أربع مرات بصيغة النكرة التي يدل تكرارها على الاختلاف بين كل سبب وآخر، وتدل بوضوح على أن أسباب التمكين مختلفة عن أسباب فتح المغرب، كما أنها متغايرة مع أسباب التمكن من المشرق، كما أنها مختلفة في بناء الحضارة والسدود. وتكرر لفظ» أسباب» معرفاً ومنكراً أربع مرات، تدور معانيه حول الوسائل والطرق الموصولة إلى غاياتها وأهدافها بإذن الله تعالى.

مبدأ السببية مبدأ إسلامي أصيل:

وما ذكر في هذه الآيات وغيرها يدل على أن مبدأ السببية جعله الله تعالى من سننه مع خلقه، فمثلاً فإن الله قادر على أن ينزل الغيث، وينبت النبات وغيرهما، بدون سبب، ولكنه ربط كل شيء بأسبابه، والمسلم الحقيقي لا يختلف عن الكافر في الأخذ بالأسباب والاهتمام بها إلا في شيء واحد مهم، وهو أنه يؤمن بأن الله هو خالق الأسباب، وأنه هو الذي أمر بها، وربط بين الشيء وأسبابه، ولذلك فالأخذ بالأسباب في نظري قربة وعبادة وتنفيذ لأمر الله، وهذا يعطي القوة الدينية للأخذ بالأسباب مع القوة العقلية والدافع الفطري. لذلك لا ينبغي ان نركز على القول المشهور» إن الأخذ بالأسباب لا يتعارض مع الإيمان بالله تعالى وقدره وقدرته» بل يجب أن نقول» إن الأخذ بالأسباب هو انقياد لله تعالى وطاعة له فيما سنّه وأمر به»، ويدل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ وهو أعظم المتوكلين ـ قد أخذ بجميع الأسباب في كل تصرفاته وسيرته العطرة، لأن الله تعالى أمر به فقال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾[41]، حيث يدل على وجوب استفراغ قمة الجهود وأعلاها

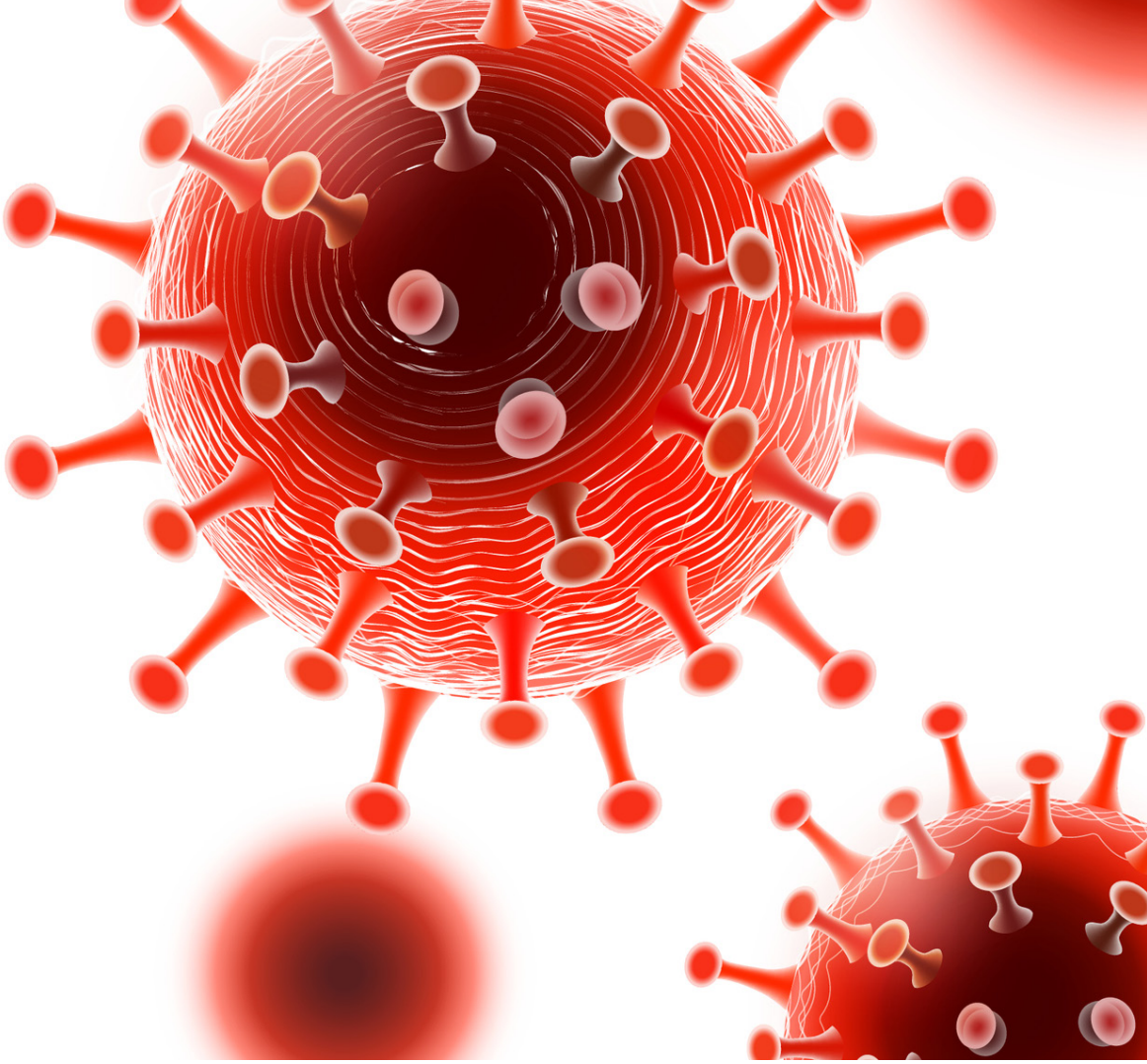

وأتقنها وأجودها من خلال الأخذ بالأسباب؛ لتحقيق ما يريده الله تعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن عباده المؤمنين، ولفظ» قوة» نكرة يدل على جميع أنواع القوى العلمية والعسكرية، والتقنية...إلخ.

ومن هنا فإن مبدأ السببية أو قانون السببية أصله القرآن الكريم، وسار عليه الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم، فالأخذ بالأسباب لا ينكره عاقل في مجالي الأكل والشرب، فمن لم يأكل ولم يشرب فمصيره إلى الموت خلال فترة وجيزة حسب سنن الله

تعالى، ولكن يناقشه البعض في مجالات أخرى، مثل التداوي، فقد لا يلجؤون إلى التداوي، وهذا خطأ من الناحية الشرعية، كما أنه خطأ فطري وعقلي، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتداوى، ويأمر به.

لذلك نستطيع أن نلخص المنهج الإسلامي في الطب والعلاج في النقاط الآتية:

أولاً: العلاج من خلال الإيمان بالله تعالى وبالقضاء والقدر، وإرجاع الأمر كله إلى الله تعالى مع الأخذ بجميع الأسباب المتاحة لدفع

المرض، والأخذ بالحيطة والوقاية قبل الوقوع والإصابة، ثم الأخذ بجميع الأسباب المتاحة للعلاج والشفاء.

ثانياً: يغرس الإسلام في نفوس أتباعه الرضا والقناعة، والصبر والمصابرة على ما أصابه، والشكر والحمد والثناء لله تعالى إذا درأ عنه المرض، ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ المؤمن: إن أصابته

سراء فشكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له»[٤٢].

ثالثاً: يأمره الإسلام بالوقاية والحماية، سيأتي تفصيله في الطب النبوي والوقائي.

رابعاً: يأمر الإسلام بعد ذلك المسلم بالتداوي، فقد روى أحمد وأصحاب السنن وغيرهم أن الصحابة قالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «**تداووا فإن الله لم يضع داءً إلاّ وضع له دواءً غير الهرم**»[٤٣] وفي حديث آخر قال الأعراب: **يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: «نعم، يا عباد الله تداووا»**[٤٤].

خامساً: يوسع الإسلام دائرة التداوي بالأدوية والعلاج الطبي والعمليات ونحوها، وهذا هو الأصل، ومع ذلك يرشده إلى الاستشفاء بالقرآن الكريم والأدعية المأثورة حيث يقوي قلبه وحينئذٍ يشفى بإذن الله.

سادساً: يبين الإسلام للناس جميعاً بأن لكل داء دواء ولكل مرض شفاء علمه من علمه، وجهله من جهله، يختلف ذلك حسب العصور والأزمان وتطور الأدوية والعلاج والوسائل الطبية، حيث يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لم ينزل داءً، ـ أو لم يخلق داءً ـ إلاّ أنزل ـ أو خلق ـ له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلاّ السام، قالوا: يا رسول الله، وما السام؟ قال: الموت**»[٤٥].

سابعاً- وأخيراً فمنهج الإسلام منهج قائم على الزوجية (أي الطب الروحي والنفسي والطب المادي) وليس على الأحادية أي الاعتماد على الجانب المادي فقط، أو الجانب الروحي فقط، وهكذا الإسلام في كل شيء حيث يجمع بين الدين والدنيا، وبين المادة والروح، وفي ذلك وغيره جمع للخيرين.

الهوامش:

١- سورة العلق / الآية ١- ٥.

٢- سورة الزمر/ الآية ٩ .

٣- فتح الباري على شرح صحيح البخاري ط. السلفية بالقاهرة.

٤- د. يوسف القرضاوي : الرسول والعلم ط. الرسالة /بيروت ص ٤.

٥- د. يوسف القرضاوي : المرجع السابق، ود. علي القره داغي : مقدمته عن آداب العلم والعلماء وآداب المتعلم والعالم، لكتاب : أيها الود للغزالي، ط.دار الاعتصام، وط. دار البشائر الإسلامية بيروت.

٦- ترجمة د. محمد عبدالهادي أوريده ط. دار الكتاب العربي ١٣٨٧ هـ.

٧- المرجع السابق (١/٣١٩.٣٢٦).

٨- سورة التوبة / الآية ٥١.

٩- سورة النحل، الآية رقم: ١٠٦.

١٠- سورة المائدة (٣٢).

١١- سورة المائدة (٢).

١٢- يراجع: فتح القدير (١/٥١٧-٥١٨) وشرح المنهاج للمحلي (٢/٤٤-٤٥) والمغني لابن قدامة (٢/٦٢٩-٦٣١) وبداية المجتهد (١/٢٦٦).

١٣- سورة المائدة/ الآية ٣٢.

١٤- سورة آل عمران/ الآية ٩٢.

١٥- سورة الحشر/ الآية ٩.

١٦- سورة محمد / الآية ٣٨.

١٧- سورة المائدة (٢).

١٨- رواه البخاري (٢٤٨٦) ومسلم (٢٥٠٠).

١٩- يراجع: الوابل الصيب لابن القيم ص ٤٨، وفتح الباري (١٠ / ١٩٤) وشرح النووي لحديث مسلم في صحيحه رقم الحديث (٩١).

٢٠- ذكره بهذا اللفظ ابن القيم في زاد المعاد (٤ / ٣٥) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن»، وأما الجملة الأولى: غدة كغدة البعير» فقد رواه المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ٢٩٤) وإسناده حسن وجيد، كما قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٢ / ٣١٠) وأخرجه أبو يعلى (٤٦٦٤) وأحمد (٢٦٢٢٥) وقال السيوطي في الجامع الصغير(٥٣١٣) صحيح.

٢١- شرح النووي لصحيح مسلم (١٤/ ٢٠٤) ويراجع في الموضوع نفسه: عمدة القاري (٢١ / ٢٥٦) والمنتقى (١٩٨/٧) وفتح الباري (١٠/ ١٨٠).

٢٢- رواه البخاري برقم (٥٤٠٠،٢٦٧٥) ومسلم برقم (١٩١٦) والترمذي برقم (٢٢٤٢) ويراجع شرحه فتح الباري (١٠ /١٨٠).

٢٣- زاد المعاد بتحقيق الأرناؤوط (٤ /٣٨).

٢٤- سورة الأنعام / الآية ٤٣.

٢٥- سورة التين / الآية ٤.

٢٦- د. محمد عبدالله دراز: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ط. دار القلم ببيروت ١٩٧٠ ص١٤٨.

٢٧- طه الهاشمي: تأريخ الأديان، ط. منشورات مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٣ ص٢٤٠.

٢٨- يراجع كتاابنا: إسلام الرحمة وَظاهرة الإرهاب، دراسة تحليلية لحقيقة الإسلام ورحمته ووسطيته، ولمفاهيم الإرهاب، والجهاد، والتكفير، والخلافة والحكم ط. الأولى، دار البشائر الإسلامية / بيروت ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨ ، ومصادرع المعتمدة.

٢٩- سورة البقرة الآية ٢٥٦.

٣٠- سورة الكهف الآية ٢٩.

٣١- سورة البقرة ٢٨٥.

٣٢- رواه أحمد في مسنده ١٦/٣٠٠) وقال محققه الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح ورواه البزار في البحر الزخار ١٥/١٧٠، وحسنه الآخرون.

٣٣- قال الألباني في شرح الطحاوية ٣٦١ حديث صحيح.

٣٤- سورة البقرة الآية ١٤٣.

٣٥- سورة التوبة (٥١).

٣٦- سورة الأنعام (١٧).

٣٧- سورة البقرة (١٩٥).

٣٨- سورة الكهف (٨٤،٨٥).

٣٩-سورة البقرة (١٦٦).

٤٠- سورة الكهف (٨٤).

٤١- سورة الأنفال (٦٠).

٤٢- رواه مسلم في صحيحه، رقم الحديث ٢٩٩٩.

٤٣- يراجع: سنن الترمذي. مع تحفة الأحوذي. (٦/١٩٠) والتاج الجامع للأصول (٧/٥١٣) والمجموع للنووي (٥/١٩٦).

٤٤-الحديث بشواهده صحيح كما قال الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة ط. المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ (٤/٢٠٧).

٤٥- أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠١/٤) وسكت عنه، ورواه أحمد (٤٤٦/١) رواه النسائي مختصراً (٦٤/٢) وابن حيان الحديث رقم ١٣٩٨، والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث رقم ١٦٥٠ (٤/٢٠٧).

الوباء والاحتراز في الفكر الإسلامي: تأملات في كتاب الترياقي التميمي

أ.د. عائشة يوسف المناعي

مديرة مركز إسهامات المسلمين في الحضارة

تكمن أهمية مركز إسهامات المسلمين في الحضارة وهدفه ورسالته الحضارية في بيان قدرات وإمكانات علماء المسلمين منذ القديم في علومهم المختلفة في الطبيعة والمادة والنفس والروح... تمثل ذلك في علم الفلك والطب والفيزياء والكيمياء وعلم النفس ودائها وأدوائها، وعلم الجسم وعلله وعلاجه. وقد كان ترجمة ونشر تلك العلوم هي الهدف الرئيس للمركز.

ومن محاسن الصدف أننا قد دفعنا بكتاب لعالم من علماء الإسلام وهو محمد بن أحمد التميمي المقدسي الترياقي – من علماء القرن الرابع الهجري – قد سماه « مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء» – دفعنا به إلى من يقوم بترجمته إلى الإنجليزية منذ أشهر عدة، قبل أن يجتاح العالم ما يسمى «فيروس الكورونا كوفيد ١٩». وقد انتشر هذا الوباء منذ نهاية شهر فبراير ٢٠٢٠ إلى لحظتنا هذه.

ومن جميل الصدف أن يكون مؤلف الكتاب المتوفي في ٣٧٠ هجرية فلسطيني الأصل، وقد ولد في بيت المقدس، لذلك لقب بالمقدسي. فهو ابن فلسطين الجريحة المحتلة والمغتصبة والتي يتسارع بعض العرب للتطبيع مع مغتصبها وجارحها وهم بنو إسرائيل. فتحية لفلسطين وأبنائها وعلمائها.

وقد رأيت بمناسبة تزامن انشغالنا بهذا الكتاب مع تلك الجائحة أنه من

المناسب جدا أن أستعرض ما جاء في هذا الكتاب القيم في مضمونه وفي طرحه، والذي يشعر القارئ بأن مؤلفه عالم من علماء الأوبئة وانتشارها وصحة البيئة، وكأنه يحدثنا عما نعانيه في هذا اليوم. وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة العربية في تحقيق التراث من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٩٨، وقد قام بتحقيقه ودراسته السيد يحيى الشعار، فأصبح حجم الكتاب ما يقارب سبعمائة صفحة. وقد صدر له معهد المخطوطات العربية بمصر مبينا أن التلوث البيئي يعد مشكلة للعالم في هذا العصر وأيضا في العصور السابقة، وقد أعجبني عبارة لهم قالوا فيها: «**إن مجرد معالجة هذا الموضوع في ذلك الزمن (الماضي) الذي لم تكن فيه «قضية البيئة»** تعني شيئا بالقياس إلى ما تعنيه اليوم يعد مؤشرا حضاريا كبيرا على وعي يستحق كل احترام وإكبار وتقدير». ويؤكد المحقق على أن هذا المخطوط أقدم مخطوط عربي من نوعه يصل إلينا، حيث يناقش مشكلة تلوث الهواء وأسبابها والأمراض الناتجة عنها وكيفية علاجها والأدوية التي يجب استعمالها.

وقد سار المؤلف مع تصنيف العلماء لعناصر الحياة الأربعة وهي الماء والهواء والتراب والنار، ويرى أن أي فساد يصيب الهواء فهو يؤثر على كل الكائنات فيقول: «**إنا قد نسمي الجو الصحيح ما كان معتدلا في الحرارة واللين والصفاء، وكان طيب المتنفس طيب الرائحة، والجو وإن كانت ثلاثة العناصر الأخر مشاركة له في منافع الحيوان والنبات وإتمام مصالحها، فإن الجو أعظمها منفعة، لأنا فيه نتنفس، ومنه نقبل بالاستنشاق ما تغتذي أجسادنا وبه قوامها بإذن الله ، فإن تغير الجو إلى نوع من الفساد كان تغييره مسرعا في فساد الأشياء التي فيه من الحيوان والنبات**» (ص ١١١ من الكتاب).

وحينما سمى الترياقي كتابه بمادة البقاء فإنه قصد بذلك المواد التي هي الهواء والماء لحفظ حياة الانسان وبقاءه بل والحيوان أيضا والنبات، ثم يذكر في عنوانه «**التحرز من ضرر الأوباء**»، وبهذا يعني اتخاذ كافة الأسباب لعدم

انتشار الوباء إذا وقع ثم كيفية معالجته بما يصفه من خليط لكثير من النباتات والفواكه يراها تصلح لمرض بعينه أو تصلح لمجموعة من الأمراض. ونحن رأينا في بلدنا قطر هذا المسمى قد أطلق على تطبيق في وسائل تواصلنا الحديثة سمي بالاحتراز. وأيضا لبس الأقنعة التي قد تمنع من انتقال العدوى عن طريق الأنف أو الفم. وهذا ما يفعله العالم بأسره في هذا الوقت.

ويجدر بالذكر أن الكتاب اشتمل على عشر مقالات، وبعض المقالات يقسمها المؤلف إلى عدة أبواب، وقد بدأها بإيضاح أنه كان متأثرا ومقتبسا لكلام من سبقه وأخذ منهم وأضاف عليهم وهم (أبقراط الطبيب وجالينوس وأرسطوطاليس الحكيم والقس أهرن).

وقد وجدت مراجعة للكتاب بتلخيص عميق للأستاذ فاضل السعدوني من جامعة قطر نشره في العدد ٢ لعام ٢٠٢٠ من مجلة «تجسير» التي تصدر عن مركز ابن خلدون وبنشر دار نشر جامعة قطر.

ولكبر حجم الكتاب رأيت أن نتطرق باختصار إلى ما يعنينا منه باختيار بعض الأبواب والتطرق لما جاء فيها من مكنون علم المقدسي الترياقي. فهو بداية يفرق بين الأمراض العامية الحادثة من فساد الهواء وتلوثه وغيرها من الأمراض المختلفة التي تعرض لأهل المدن في سائر فصول السنة. يقول: «**فإن انقلاب أوقات السنة مما يعمل في توليد الأمراض خاصة، وفي الوقت الواحد منها التغيير الكثير في البرد أو في الحر**» (ص٩٢)، وبدأ يفصل في تلك الأمراض حسب كل فصل وما يحدث فيه من أقصى الرأس إلى أسفل القدم.

ثم بعد ذلك يتحدث عن فساد الهواء المحدث للطواعين والحصبة والأمراض العامية الرديئة. وكعادته فإنه يرجع الأمراض الشديدة إلى فساد الجو. ويرى أن خوف الانسان كثيرا ما يكون من الطعام والشراب ولكنه يرى أن الهواء الفاسد الذي يتنفسه الانسان ليلا ونهارا قد يؤثر أثرا كبيرا في كل شيء حتى إفساد المياه: «**وكما أن الطعام الرديء الجوهر الخبيث والذي فيه السم والماء الرديء الجوهر، متى أكل منه آكل أو**

شرب من ذلك الماء شارب أضر بآكله وبشاربه، ولم يكد ينجو منه إلا الواحد بعد الواحد في الفرد. ممن مزاجه مضاد لمزاج ذلك الفساد فهو يقبله قبول المرضى للدواء. فالجو مادة لحياة كل متنفس، وذلك أنه يصل إلى القلب بحركة الرئة للتنفس عند استنشاقنا إياه بالنفس دائما في كل حال وفي كل حين» (ص ١١٢). وهو هنا يشير إلى أن تنفس الجو أو الهواء أشد من الأكل الفاسد بل هو يدعم ويساعد على تشبث المرض بالإنسان إذا كان من الأكل والشرب كما ذكرنا سابقًا.

ثم أبان عن أسباب ستة قد نجد أطباء العصر يوصون بها لصحة البدن والنفس، وهي ما يجب على الانسان أن يكتسبه من أمور ستة تقوى بها مناعته وهي أمور يصفها كل طبيب لمرضاه،

وينصح بها الأصحاء وقاية لهم. وهي قد تضاد وتمنع تأثير الهواء الفاسد. وهي:

الهواء المحيط بالأبدان من برودة وحر ورائحة زكية أو رائحة فاسدة

ما يغتذون به ويشربونه

الاستفراغ استجابة لنداء الطبيعة والامتناع عن كل طعام يؤثر سلبا في الصحة، وللأطباء في ذلك مسالك.

الحركة والسكون مع الاسترخاء، الرياضة في مجملها من حركة وسكون. وقد حدثتني طبيبة في العلاج الطبيعي بأن معرفة الانسان لكيفية استرخاء جسده قد يكون أكثر أهمية من الحركة.

ساعات النوم وساعات اليقظة.

الأحداث النفسانية، صحة النفس من أعراضها، وهي كثيرة: الحزن والاكتئاب والخوف والوسواس والهلوسة....

والهواء الفاسد سواء في الطبيعة أو من نفس الانسان هو الذي يه تنتقل العدوى، وبالفعل هذا ما حدث في أقرب وباء اجتاح العالم ولا يزال يعاني منه، وهو فيروس الكورونا (كوفيد ١٩) الذي ينتقل بين الناس من خلال النفس عن طريق الفم والأنف فيقول: «**وحمل الهواء للفساد من نفس العليل وإيصاله إياه إلى الصحيح المجاور إنما هو بكثرة نفس العليل**» (ص ١٣٨)، والدليل على ذلك هو «**أنا نرى المنزل الذي فيه ممن لم يحصب أو يجدر قط إذا حدث بواحد منهم إحدى هاتين العلتين لم تلبث تلك الجماعة إلا اليسير حتى تنالهم تلك العلة بعينها**» (ص ١٣٨).

والمقدسي الترياقي – وأحب أن أسميه بذلك لأنه يخترع المركبات والترياق من الأدوية إلى درجة أرهقتني ولم أستطع تتبعها – لا يكتفي بذلك، بل هو يصف الدواء من الأكل والشرب والروائح الطيبة والامتناع عن أكل اللحوم والسكاكر. وقد أفرد لذلك بابا من أبواب الكتاب يقول في مقدمته: «**من ذكر الأدوية المركبة الدافعة ضرر فساد الهواء وتخليصها من أمراض الأوباء، إذا شربت في حال الصحة وأيام السلامة ، وكيف يجب أن تسقى على التدريج**» (ص ١٥١). وفي باب آخر يذكر «**الطيب وإصلاح روائحه للهواء**

الفاسد وتقويته لنفوس الأصحاء ونفوس ذوي العلل المنهكة» (ص ٢٠٩). وفي روائح الأطياب قوة للنفس مثل الماورد، والكافور والمسك والعنبر والدخن المركبة من الأجناس. وهذه أمور كثيرا ما يعرفها العرب من البخور والمستكة واللبان وأجناسه. فهذه وغيرها قد تغير مزاج الانسان وتشعره بالصحة النفسية التي قد يترتب عليها صحة البدن وبخاصة فيما يسمى اليوم بالأمراض النفسجسمية.

وتحدث أيضا عن الموسيقى والغناء

وكيفية علاجها لأوجاع الانسان وهو هنا لا يختلف عن طرح الطب الحديث في هذا الأمر. ولم ينس الماء الفاسد وكيفية معالجته بغليه في درجة حرارة معينة ليطيب ويذهب عنه الفساد أو ما نسميه بالتلوث.

وعلى الرغم من أنه استنكر على علماء الهند قولهم بأن هناك أدوية تمنع الهرم وتعيد الشباب المنصرم وتديم الصحة وتقضي على المرض وقال: «**نحن نعلم أن من الممتنع في العقول رد الشباب الذاهب على ذي الهرم الفاني بمركب من مركبات الأدوية**» (ص ٢٠٠)، على الرغم من ذلك أرى من نظرة شرعية أنه يؤخذ على المقدسي في هذا الكتاب القيم أنه قد جعل للخمر فضائل قد تشفي العليل وبخاصة الأمراض النفسية، وقد أشار المحقق إلى

أن هذا مباين لشرع الله تعالى الذي حرم الخمر، إلا أن المقدسي يقول: «**إنه لما كان الشراب المسكر أخا للروح وشقيقا للنفس وكان من أفضل ما تنتفع به الأجساد في هضم أغذيتها وتعديل أمزجتها**» (ص ٢٣٧) وقد ذهب إلى أنها قد تعالج ما يسمى بالمرض النفسي المسمى «الماليخوليا»- وأود أن أذكر بأن بعض الأطباء في عصرنا هذا قد ينصحون أصحاب العلل النفسية بشرب الخمر، أو حتى إقامة علاقات خارج إطار الزواج. إلا أنه كعالم مسلم نستنكر عليه ذلك. يقول: «**ولما كان الغرض اللازم للماليخوليا وهو ما يصيب بالخوف والفزع والوحشة وكان فعل الخمرة إكساب النفس الفرح دفعة وهو أقوى أفعالها لأنه يفقد العقل، وإظهار الشجاعة والجرأة وجب أن يكون الشراب دواء قويا للحزانى والخائفين**» (ص ٢٤١). وقد كنا نسمع عند إخواننا المصريين هذا المصطلح **(الماليخوليا)** وكان يتبادر لأذهاننا أن هذا المصطلح يطلق على الأمراض العقلية التي تتضمن كل ما ذكره المؤلف من الحزن وكره الحياة والخوف والفزع من كل شيء.

وكنت أود أن أذكر لكم تركيبة دواء من تراكيب المقدسي، ولكن الأمر استصعب على فهمي لكثير من المواد التي يذكرها وقد تصعب على من هو في زماننا من غير المتخصصين في ذلك العلم.

وعلى كل حال فإن هذا العالم أنتج لنا مؤلفا سبق به عصره وعصر من أتى بعده قبل أن تكتشف الأجهزة والأدوات والمجاهر التي بها يقاس الدم ويطلع على ما في جوف الانسان وعظامه وإعداد البحوث الطبية الموسعة التي يشترك فيها الكثير من الأطباء والعلماء والباحثين. لكل ذلك كانت أهمية الكتاب وكانت أهمية اكتشافنا لبعض من علماء المسلمين وإسهاماتهم الكثيرة في الحضارة الإسلامية والإنسانية.

الأديان وتحدّيات مسألة كورونا: مقاربة في ضوء النصوص الدينيّة

د. حيدر حبّ الله

طرح موضوع وباء كورونا على الفكر الديني أسئلة وتساؤلات، ويمكن أن ترجع أهمّ الإثارات هنا إلى محورين:

المحور الأوّل: محور لاهوتي عقائدي فلسفي، وغالباً ما يدور حول علاقة الله بالشرور أو الآلام التي تواجه البشر، فقد أثار العديد من المفكّرين المعاصرين قضية الشرّ مجدّداً عقب ظهور هذا الوباء.

المحور الثاني: محور سلوكي عملي يتصل بموقف الأديان ونهج تعاملها مع قضايا الجسد الإنساني وحماية الحياة الإنسانية الماديّة على الأرض، فهل للأديان موقف سلبي من الجسد حتى توجّه أبناءها نحو إهمال مخاطر الصحّة والسلامة العامّة أو أنّ العكس هو الصحيح؟

لن يتسنّى لي في هذه المساحة المختصرة معالجة الموضوعين بإسهاب، لكنّني سأحاول رصد بعض المعالم الدينيّة فيهما ليس انطلاقاً من زاوية فلسفيّة محضة، بل من زاوية دينية.

أوّلاً: البعد اللاهوتي العقدي لفكرة الآلام والمعاناة

في **الجانب الأوّل**، تستوقفنا مجموعة من المفاهيم الدينيّة التي تضع أمامنا عدّة قواعد في بناء الحياة على الأرض أهمّها:

قاعدة تأثير السلوك الإنساني على سلميّة العلاقة مع الطبيعة، هذه القاعدة تؤكّد

دينيّاً أنّ الإنسان يتحمّل ـ على الأقلّ ـ جزءاً من المخاطر والكوارث التي تحصل في الطبيعة. ولا يقف ذلك عند حدود تخريب الإنسان للطبيعة بسبب طغيانه وطمعه وتغوّله مادياً وسلطويّاً، وهو ما تواجهه اليوم مشكورةً المنظّمات البيئيّة الناشطة في العالم، بل يتخطّى ذلك نحو ارتباط الأمر بعلاقة الإنسان بالله وبأخيه الإنسان أيضاً، فالنصّ القرآني كثيراً ما يربط سلوكيّات البشر وأخلاقيّاتهم بالعذاب النازل عليهم أو بالفساد الواقع في الأرض، ومن ثم فهو ينشؤ ارتباطاً وثيقاً بين سلوكنا نحن البشر في الخطيئة وبين ردّات فعل الطبيعة تجاهنا فيما تمثله من قضاء إلهيّ يتصل بالبشر عذاباً أو امتحاناً أو عقاباً نازلاً.

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾[3]، وقال تبارك اسمه: ﴿**وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ**﴾[4]، وقال عزّ من قائل: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[5]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[6].

ليس ذلك كلاماً طوباويّاً ولا يعني زوال منطق الأسباب الطبيعيّة ولا تخطّي قواعد العقل الفلسفي أو العلمي في الروابط بين الأمور، بل يكشف النصّ الديني عن علاقة جديدة بين الأسباب والمسبَّبات تتصل بسلوك الإنسان، وكأنّ الطبيعة تعبّر عن غضبها أو انزعاجها ـ أحياناً ـ فيما أراده الله لها تجاه سلوكنا مع الله ومع الإنسان ومعها هي أيضاً، بما تمثله من حجر ومدر وشجر وحيوان وغير ذلك. إنّها واحدة من السنن الإلهيّة في الخلق لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً[7].

فليس قصد الدين هنا إجهاض الأسباب الطبيعيّة التي تكشف عنها العلوم كما قد يخيّل لبعض العِلْمَوِيّين الذين يريدون افتعال خصومة بين الدين والعلم في هذه القضيّة، بل خلع معنى على الظواهر الطبيعيّة نفسها بأسبابها ومسبّباتها، فالأديان بطبعها تقوم بخلع المعاني على الأمور الصامتة انطلاقاً من أنّها تربط الظواهر الطبيعيّة بغايات في الخلق، على أساس أنّ فاعل هذه الظواهر في رأس سلسلة العلل والمعلولات هو الله الحكيم العاقل القاصد المريد، فليس من شيءٍ يقع بصمتٍ أو عبثيّة كما تؤكّده النصوص الدينيّة[٨]، لهذا فالدين بهذه القراءة يربط الوقائع الطبيعيّة المفهومة علميّاً بغايات قصدية ماورائيّة، وهذا شيء طبيعي لدى كلّ من يملك رؤية ميتافيزيقية متعالية من هذا النوع. وهو شيء يصعب على العلم أن يحدّده بالأدوات الطبيعيّة؛ لأنّ الغايات قصودُ العاقلين، فيما العلم يدرس الظاهرة بنفسها بوصفها حدثاً لا غاية.

هذه العلاقة نجدها في اللاهوت المسيحي واضحةً أيضاً عبر مفهوم الخطيئة الأولى ـ وليس فقط في العهد القديم عبر مفهوم العذابات النازلة على بعض الأقوام السابقين مثل سدوم وعمورة ـ تلك الخطيئة الكامنة في كلّ واحدٍ منّا؛ إذ كلّ واحد منّا هو آدم، وفي داخله تلك الخطيئة التي حصلت، والكتاب المقدّس يؤكّد أنّ ما نحن فيه من معاناة وآلام ناتجٌ عن فعل الخطيئة، وإلا فإنّ نصيبنا هو السعادة والجنّة والرخاء والديمومة.

جاء في الكتاب المقدّس ـ بعد شرح تحذير الله لآدم بأنّ أكله من الشجرة يجرّه للموت[٩]: «**وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ. وَقَالَ لآدَمَ: لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ**

تَعُودُ»[١٠].

إنّ القرآن يُلمح أيضاً لهذا الأمر حيث يقول: ﴿**فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾[١١]، فالخطيئة هي التي كشفت ضعفنا وهوت بنا نحو عالم المتضادّات والمتزاحمات، عالم المعاناة والألم؛ لنتطهّر بالتجربة ونعيد الارتقاء «**وإليه ترجعون**».

وإذا أردت قراءة هذه المفاهيم الدينية في الأديان الإبراهيميّة الثلاثة قراءة اجتماعية ونفسيّة، بعيداً عن النقاش الفلسفي فيها والتحليل الانطولوجي، فإنّني أجدها تدفع الإنسان للإحساس بالمسؤوليّة تجاه وقائع العالم من حوله، فكونه على صورة الله[١٢] وأنّه خليفة الله ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[١٣]. مسؤوليّتان تفرضان عليه إحياء الضمير الأخلاقي والروحي لكي ينتظم شأن العالم، فالإنسان بعودته للروح الإيمانية والأخلاقيّة يساهم في صلاح الأرض والحياة، فعندما يعبد الله ويبرّ الوالدين فهو يبني أيضاً علاقة مع الطبيعة تجعلها

مسالمة له ومتوالمة، وهذا مضمون فلسفي وجودي عميق تقدّمه الأديان في بناء العلاقة مع العالم والكون.

إنّ علاقة السلام مع الطبيعة ترجع لعلاقة سلام بين النوع الإنساني من جهة، والله المتعالي من جهة ثانية وما ينبثق عنه من جماد وحيوان وإنسان. إنّها صورة مختلفة تقدّمها الأديان؛ فالعلاقة مع الطبيعة جزء من العلاقة مع الله والعكس صحيح، وهذا يعني أنّ الآلام والأمراض والفيروسات القاتلة قد تكون لها صلة أحياناً بعلاقة الإنسان منذ الأوّليّة مع ثلاثيّة: الله ـ إبليس ـ الذات.

وبربط القضية العامّة هذه بموضوعنا يتضح أنّ اللاهوت الديني يفهم ـ أحياناً على الأقل ـ مثل هذه الظواهر الوبائية والابتلائية التي تلحق البشر بمثابة نوع من العلاقة السلبية التي بناها البشر مع الله. لا نتألّى على الله ونجزم في هذه المفردة أو تلك كما يفعل بعض العامّة من الناس فيقول: هذا انتقام إلهي هنا وذاك عذاب ربّاني هناك لأجل كذا وكذا! بل نقول بأنّ واحدة من

الفرضيات التي توفّرها الأديان لنا في كليّة النظام الكوني هي هذه الفرضية تماماً، الأمر الذي يدفعنا لليقظة الروحية والتنبّه لسلوكيّاتنا برمّتها.

إنّ المنطق الإلهي هنا يقضي بنزول مثل هذه الآلام على الإنسان نتيجة سلوكه السيء أو تراجع مستوى سلوكه الإيجابي، ليس بالضرورة بهدف الانتقام أو حتى التشفّي بالمعنى السلبي للكلمة، بل أحياناً بهدف إنهاض الإنسان وتحقيق يقظته وارتقائه بالعودة لله في لحظات الشدّة والعسر، بما يمثله الله من قمّة الضمير الأخلاقي للبشر، وهو ما يخبرنا عنه القرآن في بعض نصوصه منها: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**﴾[١٤]، ومنها: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[١٥]، فالمعاناة في التقدير الإلهي يمكن أن تكون سبيلاً لليقظة الروحيّة والأخلاقية وقيامة ضمير الإنسان مجدّداً ورجوعه لربّه وتضرّعه له؛ لأنّ الإنسان في لحظات الضعف يرجع للمطلق المتعالي سبحانه، فيعيد بناء العلاقة معه والتي ينجم عنها بناء علاقة أخلاقيّة صالحة مع نفسه ومع الإنسان الآخر ومع الطبيعة، لكنّ المؤسف أنّه إذا استجابت له الإرادة الإلهية فإنّه يعاود سلوك سبيل الغفلة فينسى الله مجدّداً!

هذا كلّه يعني أنّ الأديان تعتبر المعاناة ـ في بعض الأحيان ـ نتيجةً وفرصةً معاً، فهي نتيج سلوكنا، وهي فرصة للعودة للسلامة والصواب واليقظة. ومفهوما النتيجة والفرصة هنا يندكّان في مفهوم التطهّر، فالإنسان يتطهّر بهذه المعاناة عبر استغلالها للعودة لله وتصفية باطنه من القذارات والخبائث؛ ليعيد بناء علاقة التصالح مع المحيط كلّه.

المؤسف حقّاً ـ من وجهة نظر دينيّة ـ أنّ الإنسان الذي يُسيء العلاقة مع الله ومع الطبيعة ومع أخيه الإنسان يصبّ جامّ غضبه على الله عندما تلحقه نتائج سلوكيّاته هو في الأرض، فيعتبر الله فاعلاً للشر! فيكفر في لحظات الفرصة للتضرّع! كالولد العاقّ الذي يؤذي والديه ومحيطه حتى إذا ما وقع في نتائج

أفعاله اتهم والدَيه بما بلغه من سوء! وهذا هو تعبير القرآن في توصيف حالة هذا الإنسان: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ**﴾[١٦]. إنّه مفهوم الاستحواذ والسلطة المطلقة التي صارت للشيطان عليهم بفعل تمكينهم له من أنفسهم بالغيبوبة المطلقة عن الله عزّ وجلّ.

ثانياً: البعد السلوكي والموقف من سلامة الجسد

تعتبر ثنائيّة الروح والجسد من أكثر الثنائيّات جدلاً في تاريخ الفكر الديني والفلسفي معاً، قد لا يبدأ من الجدل في أصل الثنائية وجوديّاً عبر إنكار الروح أو إثباتها، ودراسة مفهوم التجرّد عن المادّة فلسفيّاً، ولا ينتهي أيضاً بالحديث عن الجانب العملي السلوكي في أولويّات الإنسان في الحياة بين جانب الجسد وحاجاته وشهواته وبين جانب الروح ومتطلّباتها، وما يفرزه هذا الثنائي من تعارض أحياناً بما قد يجعل الجسد يتطلّب شيئاً ترفضه الروح المتعالية أو تتطلّب الروح في حاجاتها الوجوديّة السامية ما قد لا يستجيب له الإنسان ببُعده الجسدي أحياناً أخرى.

ربما لم تكن قضيّة وجود الروح وطبيعة علاقتها بالجسد موضوعاً دينيّاً بامتياز، بل غلب عليه الطابع الفلسفي في القرون الغابرة والطابع العلمي ـ الفلسفي في العصر الحديث، لكنّ متطلّبات الروح والجسد كانت من القضايا المهمّة في الدين، في إطار رسم الأولويّات والمسارات. فالأديان في نصوصها الأولى غالباً ما نلاحظها أكثر اهتماماً بالجانب العملي السلوكي، بل هي ترى أهميّة «العلم والمعرفة» في نتائجهما على حياة الفرد والجماعة، ربما على عكس بعض التصوّرات الفلسفية التي تعتبر أنّ «العلم» بذاته مطلوب، لهذا فما تقدّمه الأديان في مجال الروح والجسد له طابع عملي منهجي سلوكي يقوم على رؤية فلسفية تقف خلفه وتشيّده.

اعتادت الأدبيات الدينيّة على اعتبار كلّ ما له ربط بالعلاقة بين الإنسان والمتعاليات (**الله ـ الملائكة ـ الأنبياء ـ القدّيسين**)، أو له علاقة بينه وبين القيم

السامية (القيم الأخلاقية والروحيّة) منتمياً لدائرة الروح، فيما ينظر لما يتصل بالقضايا التي يكون الفاعل الأكبر فيها هو الجسد على أنّها جسديّة من نوع (الغرائز الشهويّة والمصالح المادية)، من هنا عندما تتعارض مصلحة جسدية شهويّة مع قيمة أخلاقية عليا، فإنّ الأديان تقف لصالح القيم الخلقية والروحيّة؛ لأنّها تعتبر أنّ الروح هي التي تقبل البقاء وأنّ تمكينها هو الذي يسمح للإنسان بالخلاص.

هذا الأمر يقوم فيما يقوم على ثنائية الدنيا والآخرة في الأديان الإبراهيميّة؛ فالدنيا ليست سوى مزرعة أو مسير للوصول للآخرة، وتحقيق النجاة في الآخرة يكون برعاية الروح وملئها بالخير كي تقدر على الاستعداد لوقائع يوم الدينونة؛ لأنّ جوهر الإنسان بروحه وبالأنا القائمة.

يعني ذلك أنّ الجسد ليس سوى الوسيلة التي يحيا بها الإنسان في الدنيا كي يقوم من خلال تحقّق الروح/ الأنا الحقيقيّة فيه من النهوض بنفسه في الآخرة، وهذا ما يعطي الجسد في الأديان طابعاً أداتياً خدميّاً، فهو يخدم بقاء الروح في الدنيا بما يمثله هذا البقاء من حاجة للروح كي تملك فرصة التسامي في هذا العالم بغية نجاتها وخلاصها في الآخرة، وهذا معنى ما يقوله القديس ترتوليان/ ترتلّيانوس (٢٤٠م) بأنّه من خلال الجسد تمارس النفس عملها وتتمتع بعطايا الطبيعة[١٧].

وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ الأديان لا تنظر للجسد بنظرة سلبيّة، ولا تعتبر أنّ الاهتمام به خروج عن الجادّة والصواب؛ إنّما قلق الأديان من أن يصبح الاهتمام بالجسد هو الأصل والأساس، فيما الاهتمام بالروح والمعنى والباطن هو الفرع، في الوقت الذي يكون الاهتمام بالجسد مجرّد وسيلة لفتح فرصة للروح للتسامي في هذا العالم كي تحقّق الفوز يوم الدينونة، فالغرق في متطلّبات الجسد مع غفلة عن الروح وتغليب الجسد على الروح يُشبه حال شخص يسافر في البحر فيهتمّ بالسفينة التي تُقِلُّه، فإنّ هذا الاهتمام مطلوب كي يتمكّن من الوصول إلى برّ الأمان، أمّا الاهتمام بالسفينة ونسيان المسير نحو الهدف والبرّ، فهو مجرّد دوران في البحر

وغرق في الأخشاب نفسها، وهو مرفوض تماماً.

من هنا يتخذ الجسد الإنساني طابع القداسة من حيث قداسة الروح التي تحلّ فيه من الله، ومن حيث قداسة الوظيفة التي يُراد له أن يقوم بها في هذا العالم، وربما يكون هذا من نتائج كلام القدّيس اكليمندس الاسكندري (٢١٥م) عندما تحدّث عن أنّ الله اهتمّ كثيراً بخلق (جسد) الإنسان، فأعطاه كرامةً بخلقه له باليدين الإلهيّتين معاً، أمّا سائر الحيوانات فخُلقت بالأمر الإلهي[١٨]، فكأنّ اليدين في مثل التعبير القرآني: ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ**﴾[١٩]، استخدمتا لمزيد تشريف وعناية وخصوصيّة بالجسد الآتي من الطين وفقاً لفهم اكليمندس.

إنّ كلام اكليمندس يشي بأنّ الجسد له كرامة أيضاً، أو فلنقل بأنّ كرامة الإنسان تتضمّن كرامة جسده، لهذا فنحن في الأديان نحترم جسد الميّت؛ لأنّ ذلك تعبير عن احترام الميّت نفسه، ونمتنع عن قتل الآخرين كما جاء في القرآن[٢٠]، وفي الوصايا العشر[٢١]؛ لأنّ قتله وإن كان لا يُفني روحه لكنّه يفني جسده بالمعنى العادي للكلمة، وهو مرفوض، فالعدوان على الجسد يتضمّن في الكثير من الأحيان عدواناً على الروح، وتكريم الروح يتضمّن أيضاً تكريماً للجسد بشكلٍ ما، فعندما تُعلن المسيحيّة[٢٢] والإسلام[٢٣] مبدأ الكرامة الإنسانيّة فهذا يتضمّن ـ نوعاً ما ـ قبولاً بكرامة الجسد؛ لأنّ التعامل غير الأخلاقي مع الجسد نوعٌ من إهانة الإنسان لنفسه أو لغيره والعدوان عليهما.

وعندما نلاحظ مفهوم الاهتمام بالجسد ورعايته في الدين تظهر بين أيدينا نصوص عدّة، من بينها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا.. وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾[٢٤]، وفقاً لتفسيرها بأنّها تنهى عن قتل كلّ إنسان لنفسه، وليس تفسيرها بالفهم الاجتماعي عبر قتل كلّ واحد لغيره، محاكاةً لآيةٍ أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ**﴾[٢٥].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي**

سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢٦]، إنّ رمي النفس في المهالك مرفوض. وحتى لو فسّرنا التهلكة هنا بأنّها التهلكة الاقتصاديّة عبر الإنفاق المفرط غير العقلاني، فإنّ هذا يرجع في نهاية المطاف إلى جعل النفس في معرض الهلاك والضرر، فالنصّ القرآني يؤكّد على ضرورة السلامة من الهلكات الجسديّة والاقتصاديّة وأمثالها.

ويمكن أن نعزّز الموقف الديني هذا بالنصوص الحديثيّة المرويّة في كتب المذاهب الإسلاميّة عن النبيّ وأهل بيته وصحابته، حيث لاحظنا بمراجعتها أنّ بعضها يُرشد إلى العلاجات والأدوية الخاصّة، وهو ما يُعرف بنصوص الطبّ النبويّ، وكأنّها تحاول تعليم الإنسان كيفيّة الاستفادة من الطبيعة لتحسين جسده وشفائه، وهو تأكيد على اهتمام الدين بالسلامة الجسديّة والصحّة البدنيّة. كما أنّ بعض النصوص الحديثية يؤكّد على الدعوة للتداوي من

الأمراض، ويحاول الفصل بين التداوي وبين عدم التوكّل على الله، وكأنّ فهم التوكّل فهماً خاطئاً يمكن أن يجرّ الإنسان إلى ترك الأسباب الطبيعيّة ورعاية الجسد اعتماداً على كونه متوكّلاً على الله، فجاءت النصوص الحديثيّة لتؤكّد أنّ التداوي لا يخرق المبدأ الروحي التوحيديّ المسمّى بالتوكّل، بل إنّ مفاهيم الدعاء والتوكّل والإيمان تعمل على تعزيز حالة الشفاء الجسدي الآتي عبر الأسباب الطبيعيّة التي جعلها الله نفسه في الخلق، فلا تناقض بين الدين والعلم.

القاعدة الأخلاقية الذهبيّة ودورها في رعاية سلامة الآخرين:

وإذا تخطينا موضوع رعاية الإنسان لسلامته البدنيّة نحو رعايته ومسؤوليّته عن عدم تعريض السلامة البدنيّة للآخرين، وهو ما نلاحظه في الأمراض المعدية ومسؤوليّة الفرد في الرعاية الصحية تجنيباً للآخرين الخطرَ والهلاك.. إذا تخطّينا الأمر سنجد القاعدة الأخلاقية الذهبيّة (Golden Rule)[٢٧] ماثلةً أمامنا تخاطبنا بأنّ كلّ ما نحبه أو نكرهه لأنفسنا فعلينا أن نتعامل فيه بالطريقة نفسها مع الآخرين، فكما لا نحبّ منهم أن يعرّضونا للخطر بعدوى مرضيّة معيّنة عبر استهتارهم بالرعاية الصحيّة، كذلك علينا فعل الأمر عينه معهم (**احبب لغيرك ما تحبّ لنفسك واكره له ما تكره لها**).

إنّ القاعدة الذهبيّة واضحة أو شبه واضحة في نصوص القرآن الكريم والسنّة الشريفة[٢٨] والكتاب المقدّس[٢٩]، وقد أجاد الإمام النووي (٦٧٦هـ) عندما علّق على حديثٍ نبوي من أحاديث هذه القاعدة، بقوله: «هذا من جوامع كلمه صلّى الله عليه وسلّم، وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمّة فينبغي الاعتناء بها، وأنّ الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحبّ أن يفعلوه معه»[٣٠].

هل يرفض الكتابُ المقدّس الجسدَ؟!

قد يحاول أحد أن يستغلّ بعض نصوص الكتاب المقدّس لتأكيد رفض الجسد، ويبدو أمامنا واقفاً نصُّ رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية حيث يقول

لهم: «وَإِنَّمَا أَقُولُ: اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلاَ تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ لأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحُ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهَذَانِ يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، حَتَّى تَفْعَلُونَ مَا لاَ تُرِيدُونَ وَلَكِنْ إِذَا انْقَدْتُمْ بِالرُّوحِ فَلَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ»[٣١].

يوحي هذا النصّ برفض الجسد ووضعه في خصومة مع الروح ثمّ الانتصار للروح عليه، فكأنّ الجسد لم تعد له قيمة وليس علينا الأخذ بمتطلّباته، وهو ما قد يدفع للاعتقاد بأنّ المسيحيّة تتخلّى عن الجسد تماماً وتتنكّر له ولا تعير أهميّةً أو بالاً لما يحتاجه ويدعو إليه. لكن في تقديري لا يراد من الجسد هنا إلا العيش الفارغ من الإيمان ومن الولادة الحقيقيّة، إنّ الجسد هنا ليس هو البدن في مقابل الروح بوصفهما كائنين مخلوقين، بل هما الولادة الماديّة الخالية من المعنى والروح، وما يؤكّد ما نقول هو تكملة هذا النصّ حيث يشرح لنا بولس الرسول الفكرة الأساسية من الجسد وهو ذاك النمط من العيش الغارق في الدنيا وملذّاتها والبعيد عن الروح والإيمان والمحبّة والأمل.. إنّ بولس يعرّف الجسد هنا بالسلوك غير الإيماني وغير الأخلاقي معاً، حيث يقول فوراً: «وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ: الَّتِي هِيَ زِنىً عَهَارَةٌ نَجَاسَةٌ دَعَارَةٌ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ سِحْرٌ عَدَاوَةٌ خِصَامٌ غَيْرَةٌ سَخَطٌ تَحَزُّبٌ شِقَاقٌ بِدْعَةٌ حَسَدٌ قَتْلٌ سُكْرٌ بَطَرٌ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الَّتِي أَسْبِقُ فَأَقُولُ لَكُمْ عَنْهَا كَمَا سَبَقْتُ فَقُلْتُ أَيْضاً: إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هَذِهِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ. ضِدَّ أَمْثَالِ هَذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ. وَلَكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ. إِنْ كُنَّا نَعِيشُ بِالرُّوحِ فَلْنَسْلُكْ أَيْضاً بِحَسَبِ الرُّوحِ. لاَ نَكُنْ مُعْجِبِينَ نُغَاضِبُ بَعْضُنَا بَعْضاً، وَنَحْسِدُ بَعْضُنَا بَعْضاً»[٣٢].

إنّ تعبير بولس واضح في أنّه يعني بالجسد الفناء في المادّة ومتطلّباتها والغرق في قضايا الدنيا بعيداً عن المعنى والروح، فيما يعني بالروح الولادة الجديدة بالإيمان والخلاص أو بتعبير بولس نفسه في موضعٍ آخر: «الخليقة الجديدة»[٣٣]، إنّ بولس لا يتكلم عن

رعاية الجسد لأجل الصلاة والعبادة ومحبّة الناس وخدمة المحتاجين ونشر الخير في الأرض، بل الجسد في مفهومه هو سلوك انحطاطي دنيوي مادي خالص. وعلى أبعد تقدير فإنّ بولس يمكن أن يكون ناقداً لتحويل الدين إلى قضيّة جسديّة في طبيعة الطقوسيّة المادية والشريعة المحاكية لقضايا الجسد فقط (الختان و..)؛ لأنّه يريد أن يعيد إنتاج الدين من خلال الروح والمعنى، ليسكب دلالات الروح على الجسد، فيثمر الجسد صلاحاً في السلوك كما توحيه بعض كلماته الآنفة، وهو ما يخلع على الطقوس المادية معنى روحيّاً ويلتقي نسبيّاً مع مفهوم النصّ القرآني في قوله تعالى: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**﴾[٣٤]، فالمسألة ليست مسألة لحم ودم فيما هي الذبيحة، بل مسألة فعل روحي ومكانة روحيّة، هي التقوى.

بهذا تتضح الصورة في موضع آخر من كلام بولس حيث يقول: «**لاَ تَضِلُّوا! الله لاَ يُشْمَخُ عَلَيْهِ. فَإِنَّ الَّذِي يَزْرَعُهُ الإِنْسَانُ إِيَّاهُ يَحْصُدُ أَيْضاً. لأَنَّ مَنْ يَزْرَعُ لِجَسَدِهِ فَمِنَ الْجَسَدِ يَحْصُدُ فَسَاداً، وَمَنْ يَزْرَعُ لِلرُّوحِ فَمِنَ الرُّوحِ يَحْصُدُ حَيَاةً أَبَدِيَّةً**»[٣٥]. وكأنّ بولس يتكلّم هنا عمّن يريد الدنيا ومن يريد الآخرة وفقاً للأدبيّات القرآنيّة، حيث يقول: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ**﴾[٣٦]، فالروح هو العمل للآخرة فيما الجسد هو العمل للدنيا ولا يُنتج إلا خسارة وفساداً. بل إنّ الشريعة إذا كانت تهدف تنظيم حركة الجسد في الدنيا فقط فلا قيمة لها ما لم تخلع على السلوك البدني معنى روحيًا، فهذه هي القيمة المعنويّة في الدين. هكذا نفهم الكتاب المقدّس في مواضع أُخَر أيضاً[٣٧].

وأختم بلفت النظر إلى أمر وهو أنّ النصوص الدينية في القرآن والكتاب المقدّس قد تشير لنزول الآلام والعذابات والضغوطات على المؤمنين بهدف ترقيتهم وتعليمهم وتهذيب نفوسهم وابتلائهم ونحو ذلك من المفاهيم والمصطلحات تبعاً للنص الديني هنا وهناك، لكنّ هذا لا يعني

إطلاقاً أنّ النص الديني يرحّب بالآلام من الزاوية البشرية، فهناك فرق بين أن يجعل الله العبد في ألمٍ وامتحان وصعوبة؛ لابتلائه واختباره وتطهيره وتشجيعه على التضرّع وتهذيب النفس، وبين أن يطلب الإنسان الألم أو يسمح به اعتماداً على الغاية نفسها، فالسنّة الإلهيّة التكوينيّة تقضي بأنّ الإنسان في الدنيا سيعيش الابتلاءات، لكنّ السنّة التشريعيّة لا تقضي بأنّ عليه أن يضع نفسه في الآلام والمصائب لمجرّد أنّها آلام ومصائب مع قدرته على تفاديها وعدم كونها في نفسها مطلوباً أخلاقياً أو شرعيّاً، ولهذا نجد أنّ القرآن وأدعية الكتاب والسنّة توجّهنا للاستعاذة بالله من شرور الخلق من الإنس والجنّ وغيرهما، فلو كان النص الديني يدفعنا للترحيب بالآلام فليس بمعنى جرّ الألم والمصيبة إلى ديارنا، بل بمعنى أنّه إذا وقعت المصائب والآلام فإنّ العون

عليها هو الله وأنّ على الإنسان أن يوظّفها لصلاحه لتنتقل من تهديد إلى فرصة؛ فإنها فرصة للعودة الى الله والتضرّع والانكسار أمامه وإثبات الثبات على الإيمان والمبادئ حتى في أصعب الظروف التي تواجه الفرد والجماعة، فبهذا يتحقّق ما يريده الله من فلسفة الألم في الدنيا عبر استعانتنا به على الألم والعودة إليه عنده، لا عبر إيقاع أنفسنا في الآلام والتهاون في دفعها عنّا. كيف وقد جاء في بعض الأدعية طلب العافية: «اللهم إنّي أسالك العافية»[٣٨]. فلسنا مدعوّين لأن نعيش حياة المعاناة في أبداننا وأموالنا، بل نحن نطلب العافية من الله ودفع البلاء عنّا، لكن لو جاءت التجربة والمحنة فإنّنا نتعامل معها بأخلاقيّة عالية وإيمان راسخ ولا نضعف روحيا وخلقيّاً معها.

المصادروالمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢ . الكتاب المقدّس (كتب العهد القديم والعهد الجديد)، دار الكتاب المقدّس في العالم العربي، ١٩٨٣م.

٣ . اكليمندس الاسكندري (٢١٥م)، تيتوس فلافيوس، كتاب المربّي، سلسلة آباء الكنيسة، فيلو باترون، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٤ . ابن ماجة القزويني (٢٧٥هـ)، أبو عبد الله محمد بن يزيد، السنن، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٥ . ترتلّيانوس (٢٣٠م)، كوينيتوس، قيامة الجسد.

٦ . حب الله، حيدر، قواعد فقه العلاقة مع الآخر الديني في ضوء النص الإسلامي والمسيحي، الحقوق السياسيّة تطبيقاً، دار روافد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.

٧ . [جمع] الشريف الرضي (٤٠٦هـ)، أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد، نهج البلاغة، تحقيق: محمد

عبده، نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان [بدون تاريخ].

٨. الطبراني (٣٦٠هـ)، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.

٩. الطوسي (٤٦٠هـ)، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، إيران، الطبعة الثالثة، ١٣٩٠هـ.

١٠. القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج بن مسلم، الجامع الصحيح، المعروف بصحيح المسلم، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١١. النووي (٦٧٦هـ)، محيى الدين يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي، شرح صحيح مسلم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

١٢. الهيثمي (٨٠٧هـ)، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.

13- Catechism Of The Catholic Church.

14- Compendium Of The Social Doctrrine Of The Church, To His Holiness Pope John Paul II Master Of Social Doctrine And Evangelical Witness To Justice And Peace, Reprint Libreria Editrice Vatican, 2005..

15- Flannery, AUSTIN, Vatican Council II, The Basic Sixteen Documents, Constitutions Decrees Declarations, First printing, U.S.A, 1996.

الهوامش:

١- الروم: ٣٦.

٢- الروم: ٤٢.

٣- الشورى: ٣٠.

٤- الشورى: ٤٨.

٥- النساء: ٧٩.

٦- الأعراف: ٩٦.

٧- الأحزاب: ٦٢؛ والفتح: ٢٣.

٨- المؤمنون: ١١٥؛ وآل عمران: ١٩١.

٩- سفر التكوين ٢: ١٥. ١٧.

١٠- سفر التكوين ٣: ١٦. ١٩.

١١- طه: ١١٧. ١١٩.

١٢- سفر التكوين ١: ٢٧.

١٣-() البقرة: ٣٠.

١٤- الأعراف: ٩٤.

١٥- الأعراف: ١٦٨؛ وانظر أيضاً: الروم: ٤١؛ والسجدة: ٢١؛ والزخرف: ٤٨.

١٦- المجادلة: ١٩.

١٧- انظر: قيامة الجسد: ٧.

١٨- انظر: كتاب المربّي ١: ١٩.

١٩- ص: ٧٥.

٢٠- الأنعام: ١٥١؛ والإسراء: ٣٣.

٢١- سفر الخروج ٢٠: ١٣.

22- Catechism Of The Catholic Church, 1889, 19292301-2268 ,2261-2260 ,1933-. Vatican Council II, 574. Compendium Of The Social Doctrrine Of The Church, 105154-152 ,148-144 ,134-132 ,107-.

٢٣- المتعارف الاستشهاد هنا بالآية رقم ٧٠ من سورة الإسراء.

٢٤- النساء: ٢٩.

٢٥- البقرة: ٨٥.

٢٦- البقرة: ١٩٥.

٢٧- لقد بحثتُ بشيء من التفصيل في هذه القاعدة على وفق النصوص الدينيّة، فراجع: قواعد فقه العلاقة مع الآخر الديني في ضوء النص الإسلامي والمسيحي: ١٧٣. ٢٠١.

٢٨- راجع: المطففين: ١. ٤؛ والضحى: ٦. ١١؛ والبقرة: ٢٦٧؛ والمرتضى، نهج البلاغة: ٣٩٧؛ والهيثمي، مجمع الزوائد ١: ٤٨؛ والطبراني، المعجم الكبير ١٩: ٤٤١؛ وصحيح مسلم ٦: ١٨؛ وسنن ابن ماجة ٢: ١٣٠٧.

٢٩- راجع: سفر الخروج ٢٢: ٢١. ٢٤، و٢٣: ٩؛ وسفر اللاويين ١٩: ٣٣. ٣٤؛ وممّى ٧: ١٢، و١٩: ١٨. ١٩؛ ولوقا ٦: ٢٧. ٣٨؛ وغلاطية ٦: ١.

٣٠- النووي، شرح صحيح مسلم ١٢: ٢٣٣.

٣١- غلاطية ٥: ١٦. ١٨.

٣٢- غلاطية ٥: ١٩. ٢٦.

٣٣- غلاطية ٦: ١٥.

٣٤- الحج: ٣٧.

٣٥- غلاطية ٦: ٧. ٨.

٣٦- الشورى: ٢٠.

٣٧- انظر على سبيل المثال : رومية ٨: ١. ١٧.

٣٨- صحيح مسلم ٨: ٧٨؛ والطوسي، تهذيب الأحكام ٣: ٧٩.

التخدير والتعقيم والتطعيم في الحضارة العربية الإسلامية

د. شريف الأنصاري

لقد تعددت إسهامات العلماء العرب والمسلمين في العديد من العلوم والمعارف، وكما جاءت تلك الاسهامات العلمية في الطب والفلك (علم الهيئة) والكيمياء وعلم الميكانيكا (علم الحيل) وغيرها من العلوم، ومن ضمن تلك الاسهامات العلمية ابداعاتهم في علم التخدير والتعقيم والتطعيم.

أوّلاً: التخدير في الطب الإسلامي

معنى التخدير (المرقد):

(الـمُرقِدُ): دواءٌ يُرْقِدُ متعاطِيَه، كالأفيون[1].

هو اعطاء المريض أحد النباتات المخدرة أو مجموعة من النباتات بقصد افقاده الوعي؛ وذلك تجنبًا لشعوره بالألم، ومن ثم يتمكن الجراح من اجراء العملية الجراحية.

لقد ساهم التخدير في راحة كلًا من المريض والطبيب على حدٍ سواء؛ فلقد أراح المريض من آلام المرض والعمليات الجراحية، وأراح الطبيب من معاناة المريض وخوفه أثناء العملية الجراحية، وكانت هذه الآلام هي الدافع الرئيس للبحث والتنقيب عن عقار مخدر، ولقد عول الطبيب في بداية الأمر إلى العديد من الطرق لمحاولة تخفيف الآلام عن المرضى منها:

(١) ضربة المطرقة؛ وفيها يضرب المريض خلف الرأس على مستوى

الرقبة فيفقد الوعي لفترة قصيرة، حتى يتمكن الجراح من اجراء العملية بسرعة قبل أن يفيق المريض.

(٢) تقييد وربط المريض إلى طاولة العمليات قبل اجراء العملية الجراحية، ولكن هذا الاجراء لا يمنع المريض من الشعور بالألم.

(٣) وضع العضو المصاب كالقدم أو اليد أو الذراع مثلا في الثلج مما يؤدي إلى فقد الإحساس من شدة التبريد، وبالتالي يتمكن الجراح من إجراء العملية.

(٤) التنويم المغناطيسي؛ الذي يوحي من خلاله الطبيب إلى المريض أنه لن يشعر بالألم حتى يستيقظ من النوم.

(٥) استعمال رباط يلف حول العضو المصاب؛ وذلك لإيقاف التروية الدموية لهذا العضو، وبالتالي تقليل الإحساس بهذا العضو.

وذكر المؤرخان ابن خلكان[٢] وابن كثير[٣]؛ أن عروة بن الزبير[٤] (٢٢ - ٩٣هـ / ٦٤٣- ٧١٢ م)، أُصيب بغرغرينا اقتضى الأمر بترها، فقام أطباء الخليفة الوليد بن عبد الملك بإعطائه (المرقد) ليستغرق في النوم أثناء العملية. والمرقد لغويًّا إنما يعني في لغة العرب: العقار الذي يُسبّب النوم العميق.

لقد عرف الأطباء المسلمون الجراحة ومارسوا مختلف المداخلات الجراحية التي كانت معروفة في ذلك الوقت، من بتر واستئصال اللوزتين والأورام، وأحيانًا يعرضون وصفًا مسهبًا لبعض التفاصيل الفنية المتبعة، منها على سبيل المثال، لا الحصر، ما ذكره الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى ٤٢٨ هجرية، فيذكر: «ولا بأس بإدخال ما ينقّي من الخيزران ونحوه ملفوفًا عليه قطنة، فإن في التنقية توسيعًا، وربما أدخل في الحلق (**Pha-rynx**) قصبة معمولة من ذهب أو فضة أو نحوهما تعين على التنفّس»[٥]، وأورد بعدها ابن سينا العديد من الأدوية والتركيبات التي تستخدم في تسكين الألم (**التخدير في العصر الحديث**)، وفي هذا القدر من المداخلات الجراحية لا يعقل أن يجري بدون الاستعانة بقدر من تخفيف الألم، ومما ساعد على ولوج المسلمين حقل التخدير والعمل على تطويره هو أنّ قصة الألم كنوع من الجزاء

الإلهي لا أصل لها في معتقداتهم وتقاليدهم، وهنالك قرائن تشير إلى أنّ المسلمين كانوا يستعملون المهدئات، وخلائط مزيلة للألم قبل العمل الجراحي، فقد ورد عن ابن سينا قوله: «ومن أراد أن يقطع له عضو يسقى من اليبروح في شراب مسيت».

على العكس من ذلك فقلد ازدرى الإغريق عمل اليد واعتبر علم الجراحة من هذه المهن؛ تذكر زغريد هونكه: «لقد اعتبر التعاطي بعقاقير غير عقاقير الكنيسة وأدوية الروح، أو ممارسة مهنة الطب، وإجراء العمليات الجراحية بالآلات عملًا دون مركز الكنيسة ودون جلال الروح وقدسيتها: (إنه لمشين حقًا أن يعمل الطبيب بيديه)، إن هذا القول ظل معمولًا به مدى أجيال عديدة طويلة حتى لدى الأطباء المتعلمين، لقد كان من الأمور المعيبة الحقيرة الموغلة في عيبها وحقارتها أن يمارس عميد الطب مهنة يدوية، حتى جَسُّ النبض اعتبر أمرًا دنيئًا مهينًا «[٦].

ومن النباتات الأخرى التي استعملها المسلمون للهدف نفسه نذكر: القُنَّب الهندي (الحشيش)، وفقاعات الأفيون (الخشخاش)، والشويكران البنج وست الحسن. ومما أورده ابن سينا في كتابه القانون في الطب ما يلي: «فصل في اليبروح: أعراضه أعراض مائل وأحواله كالشارغوس، وحكاك، وكزاز وصمم... علاجه: قريب من علاج جوز مائل والأفيون... والخل نافع لهم ولجميع المخدّرين»[٧].

«**فصل في دروفنيون:** هو دواء من جملة المخدّرات وفي طبيعة البنج، ويسكر... فصل في البنج: يعرض لشاربه أن تسترخي أعضاؤه، ويرم لسانه، ويخرج الزبد من فمه... فصل في العلاج: يجب أن يسقى في العاجل ماءً وعسلًا ولبن البقر... وترياق الأفيون»[٨]، ومما هو جدير بالذكر هنا أن ابن سينا يفرد للمرقد أو للمخدر فصلًا ويذكر فصلًا يتلوه في علاجه والاستشفاء منه، وهو ما يعرف في الطب الحديث بالإفاقة.

ويورد ابن سينا في موضع آخر، فيذكر: «فصل في مسكّنات الوجع؛ يؤخذ سكبينج ومقل من كل واحد

درهمان، ميعة درهم، أفيون نصف درهم... ويضاف إلى هذا الباب ما نقوله في باب ورم المقعدة، فإنها تنفع لتسكين أوجاع القطع، والخزم، والورم»[٩].

وأيضًا يرجع الفضل للأطباء والعلماء المسلمين في استعمال التخدير الاستنشاقي عن طريق ما عُرِفَ بـ**(الإسفنجة المرقدة)** أو **(الإسفنجة المنومة)**؛ وهي إسفنجة توضع في ماء أذيب فيه الأفيون والحشيش وست الحسن والزوأن، وبعد ذلك تجفف في الشمس وتوضع فوق أنف المريض أثناء اجراء العملية الجراحية، ويتم تقطير الماء عليها فتتشبع قطرات الماء بالمخدر قبل نزولها على أنف المريض فتفقده الوعي.

فقد ذكرت **زيغريد هونكه** في كتابها المعنون بـ**(شمس الله تسطع على الغرب)**: «وعلم الطب حقق كسبًا كبيرًا واكتشافًا هامًا، وذلك باستعمال التخدير العام في العمليات الجراحية، وكم كان تخدير المسلمين فعالًا فريدًا ورحيمًا بكل ما يتناولونه، وهو يختلف كل الاختلاف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود، واليونان، والرومان يجبرون مرضاهم

على تناولها كلما أرادوا تخفيف آلامهم، وينسب هذا الكشف العلمي إلى طبيب إيطالي مرة أخرى، في حين أنّ الحقيقة تقول والتاريخ يشهد أنّ فن استعمال **الإسفنجة المخدرة** فنّ إسلاميّ بحت لم يُعْرَف من قبل، وكانت توضع هذه الإسفنجة المخدرة في مزيج من الحشيش والأفيون وست الحسن والزوأن».

الإنعاش التنفسي بالمنفاخ:

هناك قرائن تشير إلى أن المسلمين في القرن الثالث عرفوا الإنعاش التنفُّسي باستعمال المنفاخ كوسيلة لإدخال الهواء إلى الرئتين. والواقعة المختصرة التالية مأخوذة من كتاب ابن أبي أُصيبعة (٦٠٠ -٦٨٦هـ)، والمعنون بـ (طبقات الأطباء)، يروي ابن أبي أُصيبعة: جاء في سيرة صالح بن بهلة أن هارون الرشيد كان لا يأكل إلا بحضور جبرائيل بن بختيشوع، وقد قُدمت يومًا الموائد بين يديه وجبرائيل غائب فبحث عنه فلم يعثر له على أثر، مما أثار غضب الرشيد، وبينما كان الأمر كذلك حضر وقال

للرشيد معتذرًا بأنه كان يعالج ابن عمه إبراهيم، وبه رمق ينقضي وقت صلاة العتمة. وهنا تدخّل جعفر بن يحيى وقال: يا أمير المؤمنين، ابن صالح بن بهلة عالم بطريقة أهل الهند في الطب ويحسن إحضاره، فأمر الرشيد بإحضار صالح وتوجيهه والمسير به إليه وردّه بعد منصرفه من عند ابن عمه إبراهيم. فقال صالح للرشيد: أنا أُشهدك يا أمير المؤمنين، وأشهد على نفسي مَنْ حضرك أن إبراهيم بن صالح إن توفي في هذه الليلة فإن كل دابة لي في سبيل الله، وكل مال لي فصدقة على المساكين، ولم أقل ما قلت إلا بعلم، ولمّا كان وقت صلاة العتمة جاء نعي إبراهيم ابن عم الرشيد، فأخذ يكيل اللوم لصالح بن بهلة، فلم يناطقه إلى أن سطعت روائح المجامر فصاح عند ذلك صالح: الله الله يا أمير المؤمنين أن تدفن ابن عم حيًّا، فو الله ما مات فأطلق لي الدخول عليه وحدي ثانية فأذن له بذلك، وأتي صالح بكندس ومنفخة من الخزانة ونفخ في أنف إبراهيم مقدار ثلث ساعة اضطرب بعدها بدنه، وعطس وجلس أمام الرشيد. وعاش إبراهيم بعد ذلك دهرًا، ثُم تزّوج العبّاسة بنت المهدي وولي مصر وفلسطين[10].

ثانيًا: التعقيم في الطب الإسلامي

معنى التعقيم في علم الطب[11]:

هو تنظيف وتطهير المكان أو المريض أو الطبيب قبل المعالجة أو اجراء العملية الجراحية، وقد عول الأطباء العرب على تعقيم غرف العمليات قبل اجراء العمليات فيها للمحافظة على نظافتها وحماية المرضى من التلوث.

ومن أساليبهم في التعقيم استخدامهم للماء المخلوط بعسل النحل، فيتم دهن وتعقيم طاولة العمليات قبل اجراء العملية، كما كان لزامًا على الجرَّاح المحافظة على آلاته الجراحية بعيدًا عن التلوث وما يؤدي إلى تلفها؛ حتى لا يفسد بها عمله، وهو ما أكده علاء الدين القرشي (ابن النفيس) بقوله: «إن آلات العمل ينبغي أن تكون مصونةً محفوظةً عن المتغيرات المؤدية إلى أن العمل بها رديئًا؛ فلذلك ينبغي أن تكون المباضع في البيت المعروف لها (دست المباضع)، وكذلك

الإبر التي تحيط بها الجراحات ونحوها، ينبغي أن تكون في الأَبَّارة المعروفة، وكذلك الصنابير، والمهت، والمسلخ، كل ذلك ينبغي أن يكون في شيء يحفظه»[١٢].

وكانت الحقيبة المعدة لحفظ هذه الآلات الجراحية كلها تسمى (الدَّارودان) وهي ذات صفات خاصة، واعتقد أن سبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى وظيفتها وشكلها؛ فوظيفتها هي مكان تستقر فيه الآلات الجراحية فهي بمثابة دار لجمع هذه الآلات وحفظها، وشكلها إذ يبدو أنها كانت ذات أذن؛ ومن هنا كانت التسمية (الدَّارودان)، ولأهميتها أفرد ابن النفيس فصلًا في موسوعته: الشامل في الصناعة الطبية، كما عدها واحدة من الآلات التي لا يستغنى عنها الطبيب الجراح[١٣].

ويؤكد الزهراوي على ضرورة تعقيم الآلات الجراحية قبل استخدامها في العمليات الجراحية بمادة الصفراء، وقد فعل ابن النفيس الشيء نفسه إلا أنه أكد على استخدام الخل في التطهير والتعقيم؛ وذلك لتجنب الأضرار الناجمة عن تلوث الآلات أثناء العمل بها، فقد يكون التلوث سببًا لمضرة أخرى بجانب المرض الأصلي، فيذكر ابن النفيس: «وقد يكون وسخ بعض الآلات مُزِيدًا في الوجع، مثل وسخ العصائب التي يُشَدُّ بها الجرح، أو موضع الكسر، ونحو ذلك؛ وذلك لأن الوسخ يحدث فيها صلابة ما»[١٤]، ومن ثم أكد ابن النفيس على ضرورة التطهير والعقيم في كل شيء يستخدم في العمليات الجراحية[١٥].

كما ذكر د. على عبد الله الدفاع الأساليب التي ابتكرها الأطباء العرب والمسلمون في تعقيم الأماكن التي تُجرى فيها العمليات الجراحية؛ وذلك للحفاظ على صحة المريض والوقاية من انتشار الأمراض؛ فيذكر :

« وقد تفنن علماء المسلمين في الجراحة، فلكي ينظفوا المكان الذي يريدوا أن يجروا عملية جراحية عليه، كانوا يستعملون الخمر، فإن لم يكن فيه خمر فيستعملون العسل والماء لهذا الغرض. كما طوروا المرقد أو المخدر

العام، حتى كتب لهم السبق في هذا المجال»[١٦].

وقد اتخذت بعض الدول التدابير للحفاظ على صحة المواطنين مثل الكرنتينة والتي كانت تطبق عند التونسيين.

الكرنتينة: كلمة أجنبية أدخلت من اللغة اللاتينية إلى العربية معناها: «أربعون»؛ وتدل على التزام المراكب الواردة من البلاد الأخرى الملوثة الإقامة مدة أربعين يومًا خارج البلد المزار بأمر من سلطة هذا البلد حتى يتبين أن المسافرين على متنها، وكذلك البضاعة التي تحملها نقيان من أي مرض وبائي، وقد تكون مدة الكرنتينة أقل من أربعين يومًا، وربما يجبر المركب بالتزام الكرنتينة تنكيلًا لغرض سياسي أو مادي. ولكل مركب ورقة تدعى (البتيندة) وهي الجواز الصحي. وتكون البتيندة صافية إذا برح المركب بلادًا نقية من مرض وبائي، وبالعكس إذا كانت «ملوثة» وفي هذه الحالة يستظهر المركب بالسنجق الأصفر»[١٧]؛ والمقصود بالعبارة الأخير أي ترش وتنظف وتعقم المركب بالسنجق الأصفر.

أساليب العرب في تنقية وتعقيم المياه:

مما لا شك فيه أن فساد الماء من الأمور المهمة الجالبة للأمراض والأوبئة، وقد أكد عليها التميمي في كتابه مادة البقاء، حيث ذكر أن المصريين يلقون بالجيف ومخلفات حيواناتهم وكذلك صرف مراحيضهم في ماء النيل ثم يشربون منه !! ... وقد تعجب التميمي من هذا الفعل وعابه على المصريين، فنجده في أثناء حديثه عن فساد الهواء يورد جزءاً خاصاً بفساد الماء، وهو يرى أن كلاً منهما يؤثر في الآخر أي أن فساد الهواء والماء متبادلان، فيذكر : « إن الجو إذا فسد بنوع من أنواع الفساد الداخلة عليه مثل أبخرة المياه الغليظة المتصاعدة إليه ... فلا محالة أنه يفسد - لأجل ذلك أيضاً - الماء المجاور لتلك الأهوية الفاسدة ... إذ الماء والهواء عنصران متجاوران يستحيل أحدهما إلى الآخر ويدخل أحدهما في إزاء الآخر فيشابكه ويمازجه »[١٨].

وقد أعطى التميمي تعريفًا للماء

الفاسد اعتمد فيه على رأي أبقراط، فيقول إن الماء الفاسد: « يكون منظره غليظًا وبخاصة في فصل الشتاء، ويكون في كيفيته في الصيف حارًا وفي الشتاء باردًا »[١٩]. ويرجع سبب غلظ الماء الفاسد هنا إلى انحلال المواد العالقة بالماء مما يسبب تغيرًا في صفاته الفيزيائية.

وقدم التميمي عدة طرق لتنقية المياه الفاسدة، وذلك على حسب نوع الفساد الذي أصابها والظروف المحيطة، فيذكر: « ليس إصلاح الماء الفاسد ممكنًا بغير طبخه بالنار، إذ النار بحرِّها تحلل ما فيه من الغلظ وتزيل عنه ما مازجه من فساد الهواء المشابك له بما يتصاعد بخرها من بخاره المصفى لجوهره المميط عنه الغلظ المميز عنه الكدر، أو يمزجه عنه عند شربه بالشراب العتيق الريحاني، وذلك عند تعذر إصلاحه بالطبخ لمن كان مسافرًا على الطريق، أو مجتازًا ببعض المواضع الفاسدة »[٢٠].

مما سبق يتضح أن التميمي يعتمد هنا على طبخ الماء الفاسد أي غليه؛ وذلك لقتل ما يعلق به من جراثيم وغيرها، أو خلطه بشراب كحولي تتم به عملية التعقيم، ونجد أيضًا التميمي يقدم الحل للشخص المقيم في مكان فساد الماء وتتوافر لديه مقومات غلي الماء الفاسد، أما المسافر والذي قد يفتقر لهذه المقومات فيمكنه استخدام الشراب الكحولي للتعقيم، فالمهم هنا عند التميمي هو إصلاح الماء الفاسد بشتى السبل.

ولم يكتف التميمي بذلك بل تعدَّى ذلك إلى شرح الطريقة التي يجب طبخ الماء بها، والمقدار من الماء المتبخر، والآنية التي تحفظ الماء بعد الغلي إلى غير ذلك من التدابير التي ذكرها، فيقول: «وسبيله أن يديم طبخه إلى أن يذهب منه الربع، ثم يبرد في آنية من جديد الخزف المتخلل الأخير الكثير الرشح إن كان الوقت قيظًا أو في آنية من الزجاج إن كان الوقت شتاء ... وينبغي أن نعلم أن أفضل هذا الماء المطبوخ المبرد وألطفه وأنفعه رشحه، وهو ما رشح منه في آنية الخزف الجديد المتخلل الأجزاء الدائم الرشح، فليعتمد شرب ذلك »[٢١].

فنجده هنا يؤكد على ضرورة غليان الماء الفاسد حتى يتبخر الربع، ثم يرشح

بعد ذلك في آنية مصنوعة من الخزف، وأفضل ما يشرب من الماء هو الماء المرشح من تلك الآنية. وأما بالنسبة إلى الماء الكدر وهو الماء الذي يحتوي على أجسام طافية فلقد استخدم التميمي عدة طرق لتنقيتها منها عملية الترسيب وعملية الترويب وموادها، فيذكر: «فأما تصفية الماء الكدر فإنه قد يحتال لتصفية الماء الطيب الخفيف إذا كان كدرًا في أوقات المدود؛ لأجل أنواع التراب التي يمر عليها ويجري عليها بوجوه من العلاج، فمنه ما يصفى بأن يلقى فيه اليسير من الشب الأبيض اليماني، أو بأن يلقى فيه شيءٌ من لب نوى المشمش، أو قلوب اللوز المرمد فوقه، أو اليسير من ملح الطعام مدقوقًا، أو يلقى فيه شيء من خشب الساج، فإنه إذا أُلقي في الماء الحلو الكدر أحد هذه الأشياء وحرك به تحريكًا جيدًا ثم تُرِكَ ساعةً زمانيةً فإنه يصفيه ويروقه ويميز العنصر الأرضي منه بسرعة»[٢٢].

وبعد كل ما سبق نجد التميمي يتحدث عن نوع الوعاء الذي يُغلى فيه الماء والحطب المستخدم في غلي أو طبيخ

الماء، فيذكر: « فأما إصلاح الماء الفاسد بالنار وكيفية عمله فسبيله من أراد إصلاحه بالنار أن يطبخه في آنية من النحاس المونك أو من الحديد البرام، وليكن طبخه إياه بحطب الطَّرْفاء[٢٣]، فإن لحطب الطرفاء ولدخانه خاصية في إصلاح ما فسد من الهواء والماء جميعًا»[٢٤].

هنالك دلائل تؤكد أنّ علماء الطب الإسلامي هم الذين اكتشفوا الغول (الكحول)، هنالك مصادر موثوقة تؤكد أنّ الكندي قد استقطر الغول من النبيذ، ومع أنّ كلمة الكحول عربية صرفة وهي تحريف للكلمة الأصل

«الغول» من «الاغتيال» وهو روح الخمرة التي وصفها العرب بأنّها تغتال العقل، كما أنّها وردت في القرآن الكريم الذي يصف خمر الجنة بأنّها خالية من الغول ولا تتسبب في صداع من يتناولها وذلك في الآية الكريمة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾[٢٥] بالرغم من كل ذلك كانت هنالك محاولات لرد فضل هذه التسمية إلى مؤلفين من الغرب.

إذن فمن المحتمل جدًّا أنّ المسلمين الأوائل كانوا أول من وضع أسس تركيب هذه المادة الرئيسية في التخدير.

ثالثًا: التطعيم في الطب الإسلامي

معنى التطعيم[26] في علم الطب:

هي اعطاء المريض جرعة بسيطة من المرض حتى يتمكن الجسم من تكوين ما يسمى بالمناعة الداخلية ضد هذا المرض أو ذاك، ومما هو جدير بالذكر أن العرب لم تبحث عن مثل هذه التطعيمات بل اكتفت بالوقاية من الأمراض بشكل طبيعي، وذلك عن طريق الحرص على الرضاعة الطبيعية للطفل من الأم، وقد أكدت الأبحاث الطبية الحديثة الفائدة الكبرى التي تعود على الطفل الذي يرضع بصورة طبيعية بالمقارنة بمثيله من الأطفال الذين يرضعون بالاعتماد على وسائل أخرى خلاف ثدي الأم، وذلك من الناحية الطبية والنفسية للطفل. إن اللبأ (Colostrum) الموجود في حليب الأم، وهو معروف أنه مصدر غني من الأجسام المضادة التي لا تعد ولا تحصى، هو شديد الأهمية لتوفير

المناعة للطفل خلال الأيام القليلة الأولى بعد الولادة. كما تؤدي الرضاعة الطبيعية المفروضة في الإسلام حتى عمر السنتين لمناعة كبيرة في المستقبل لمحاربة كثير من الأمراض.

وتناولت المرأة بخبراتها المتوارثة بعض العادات منها تقطير بعض قطرات اللبن من ثديها في عين الطفل بعد الولادة، وتعلم الإنسان بالدربة وتوارث الخبرات أن نقر بعض الأشجار كالجميز واستخدام السائل الأبيض الذي ينتج منها في دهان بعض الأمراض الجلدية يشفي الإنسان منها، والباحث في هذا المجال يجد الكثير من الأوجه العلمية التي ما زالت في طي النسيان وتحتاج إلى بحث.

الخاتمة:

نخلص مما سبق أن الحضارة العربية الإسلامية واسهامات العلماء العرب والمسلمين في مجالات التخدير والتعقيم والتطعيم كانت متميزة، وهو ما أشادت به بعض أقلام علماء الغرب حينا بينما أغفلت وتغافلت عنه كثير منها أحيانًا، فكما تقدم الأطباء العرب في علم الجراحة وأجروا العمليات الجراحية الخطيرة كان لزامًا عليهم أن يبرعوا في المخدر الذي يمكنهم من ارجاء العمليات الجراحية بهذه الدقة العالية. وقد كان حرصهم الشديد على إنجاح العمليات الجراحية وشفاء مرضاهم مما يعانون منه من المرض كان الدافع على حرصهم على التعقيم سواء في المأكل أو المشرب أو أوجه الحياة المختلفة. كما كان التطعيم يعتمد أكثر على المحافظة على التعاليم والمبادئ الإسلامية؛ وهو الالتزام التام بحقوق الطفل في الرضاعة الطبيعية مما تكسب الطفل الحماية من الكثير من الأمراض.

هذه إسهامه يسيرة من آبائنا الأوائل في بناء صرح الحضارة العلمية والإنسانية؛ ولذلك ارتفع شأنهم وعلا ذكرهم وسُجِّلت أسماؤهم بأحرف من نور في صفحات التاريخ،

فهل آن الأوان لنواصل المسيرة، ويفخر بنا الأجداد كما فخرنا بهم، وأن نكون خير خلف لخير سلف؛ ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢٧].

الهوامش:

١- ابن منظور: لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ط٣، بيروت – لبنان، مادة رقد، ج ٥ ، ص ٢٨٢.

٢- هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الشافعي (٦٠٨- ٦٨١هـ/ ١٢١١- ١٢٨٢م)، (عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت- لبنان، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م، ج١، ص ٢٣٧).

٣- هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصروي الدمشقي الشافعي (٧٠٠- ٧٧٤ هـ/ ١٣٠١-١٣٧١ م)، (المرجع السابق، ج١، ص ٣٧٣).

٤- هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوَّام الأسدي القرشي؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كام عالما بالدين، (خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م، ج٤ ، ص ٢٢٦).

٥- ابن سينا، الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي: القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، المجلد الثاني (الكتاب الثالث)، ص ٢٩٤.

٦- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار الجيل ، ط٨، بيروت، ١٩٩٣م، ص ص ٢١٩ ، ٢٢٠.

٧- ابن سينا: القانون في الطب، مرجع سابق، المجلد الثاني (الكتاب الثالث)، ص ٢٩٦.

٨- المرجع السابق، المجلد الثاني (الكتاب الثالث)، ص ٢٩٦.

٩- المرجع السابق، المجلد الثاني (الكتاب الثالث)، ص ٢٦٦.

١٠- انظر؛ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة – بيروت، ج ١ ، ص٤٧٧.

١١- استخدم المصطلح في العلوم الأخرى مثل علم الفلاحة (الزراعة) بشكل عامي فكان يقال: تعقيب باستبدال الباء بالميم؛ أي تنظيف وتطهير الحبوب مما يعلق بها من بذور فاسدة أو الشوائب، أو اضافة بعض المواد للحفاظ عليها قبل تخزينها.

١٢- ابن النفيس، علي بن ابي الحزم القرشي: الشامل في الصناعة الطبية، (كتاب العمل باليد) مخطوط بمكتبة لاين lean بجامعة استانفورد (برقم ٢٧٦ ز) مخطوط الورقة ٣٠ أ.

١٣- انظر؛ المصدر السابق ابن النفيس: الشامل في الصناعة الطبية، (كتاب العمل باليد) مخطوط الورقة ٣٣ أ.

١٤- انظر؛ المصدر السابق ابن النفيس: الشامل في الصناعة الطبية، (كتاب العمل باليد) مخطوط الورقة ٢١ ب.

١٥- انظر؛ د.محمد جاد: التشريح والجراحة ودورهما في الحضارة الإسلامية، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط١ ، دبي، ٢٠١٣م ، ص ٢٣٨.

١٦- د.علي عبد الله الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت – لبنان، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦ م، ص٥٧ .

١٧- انظر؛ الحكيم أحمد ميلاد: الطب العربي التونسي في عشرة قرون، مطبعة الإتحاد العام التونسي، تونس، ١٤٠١ هـ= ١٩٨٠ م، ص ١٦٥.

١٨- التميمي: مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، تحقيق ودراسة يحيى شعار، معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، ط ١، القاهرة، ١٤٢٠ هـ= ١٩٩٩ م، ص ص ٦٥، ٦٦ .

١٩- المرجع السابق، ص ٦٦ .

٢٠- المرجع السابق، ص ١٨٨ .

٢١- المرجع السابق، ص ص ١٨٩، ١٩٠ .

٢٢- المرجع السابق، ص ١٩٠ .

٢٣- الطَرْفاء : واحدتها طَرْفة وطَرَفه وطَرْفاءة، وقيل: هي واحدة وجمع، هَدَبها مثل هَدَب الأَثْل، وليس لها خشب وإنما تخرج عصيًّا سمحة في السماء، وعصيّه ووقوده وأوتاره جيدة وهي من العِضاه. (حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي: الإفصاح في فقه اللغة، دار الفكر العربي، ط ٢، القاهرة، ج ٢، مادة الطَرْفاء، ص ١١١١)

٢٤- التميمي: مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، مرجع سابق، ص ١٨٩.

٢٥- الصافات: الآية ٤٧.

٢٦- استخدم المصطلح في العلوم الأخرى مثل علم الفلاحة (الزراعة) بشكل آخر؛ أي ادخال صفات وراثية على صفات وراثية أخرى، وهو ما يعرف في العلم الآن بالهندسة الوراثية، راجع مقالنا في ؛ أبو القاسم الزهراوي أحد رواد علم الزراعة والهندسة الوراثية، مجلة آفاق الثقافة والتراث- مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- العدد (١٠٠) ديسمبر ٢٠١٧م، ص ١١٦ وما بعدها.

٢٧- التوبة: الآية ١٠٥.

فاعلية الطاقة الروحية في مُواجهة الأوبئة

د. بشير خليفي

لقد أفضى ظهور وباء فيروس كورونا المستجد، (Coronavirus COVID-19) 2019 وتفشيه في زمننا المعاصر، بروز نقاش وجدل واسع أعاد إلى العلن الجدل التاريخي الشهير بين الدين والعلم، وأعيدت معها العناوين الرئيسة المعبرة عن المواقف العامة إزاء هذا السؤال، بين مُنتصر للدين ومُنتصر للعلم ومُوفق يرى ضرورة تساندهما وتلازمهما خدمة للحياة الإنسانية. في هذا الإطار يُمكّننا البحث العلمي عبر شروطه ومناهجه، من الحصول على لحظة بحثية هادئة خارج إطار التعجل والصور النميطية والأحكام السلبية، من خلال إضاءة نقطة محورية وفق مُقاربة ثلاثية الأبعاد: سُلوكية، قيمية وحضارية، تُحيل إليها العلاقة الراشدة بين العلم والدين، خارج إطار «السفسطة المعذبة» والجدل اللامُتناهي. وهي الغاية التي نتقصدها من خلال هذه الورقة البحثية؛ والتي نُفكر من خلالها في واحدة من السبل التي تمكِّن الأفراد مُواجهة الوباء والتعامل معه بطريقة حكيمة، من خلال إثبات أهمية «الطاقة الروحية» Speritual energy، بوصفها قوة، دافعية وحيوية مُتدفقة تدرأ الفزع الذي يُفضي إليه تَفشي الوباء. مُعتمدين في ذلك على

مُقاربة، نُؤكد فيها أهمية الفهم الحضاري للدين في غرس وتجذير طاقة روحية تُعبر عن هُوية دينية مُتفتحة، كما تُمثل في الوقت نفسه مَلمحا لإنسان نوعي، يملك من الدافعية والإرادة ما يجعله إيجابيا في التعامل مع الوباء، عن طريق الحد من تفشيه في مقام أول، الأمر الذي يجعل الطاقة الروحية على الصعيد الفردي والجماعي، دافعا لتفكيك وتقويض دعائم الخوف، الاكتئاب والانهزامية، وبالمقابل حافزا نحو الخير، الحق والعمل الصالح.

مقدمة:

خارج روايات وأفلام الكوارث والخيال العلمي، لم يكن ثمة من يتصور حدوث وباء يُبيد الآلاف، يُخلخل العلاقات الاجتماعية ويُنهك اقتصاديات الدول.

حقًا، لقد واجهت الإنسانية عبر تاريخها الطويل، وفي حِقب عديدة حالات يصعبُ حصرها من الأوبئة والكوارث، كانت نتيجتها إبادة الآلاف من البشر، هذا إضافة إلى حالات أخرى للتشرد واليُتم، وتخريب البُنى التحتية والمعالم الحضارية. وكانت النتيجة -أيضا- سعيا حثيثا لعدم تكرار ما من شأنه أن يُوصل إلى النتائج السابقة، في إطار منظومة صحية استباقية تأخذ على عاتقها أخذ الاحتياطات اللازمة لتفادي ما من شأنه تعكير الحياة الإنسانية؛ أتحدث خُصوصا عن تلك المنظومات المتطورة اقتصاديا وصحيا، إذ وأمام ما توصلت إليه هذه المنظومات من تطور رهيب في مجالات حياتية مُختلفة وصلت إلى حد زراعة الأعضاء البيولوجية، مد الجسور بين الجزر، اختراع الصواريخ الموجَهَة العابِرة للقارات، وصولا إلى غزو الفضاء. وكذا أمام ما توصلت إليه عديد الفلسفات والإيديولوجيات التي نظرت إلى الإنسان بوصفه السيد الوحيد على الطبيعة، على غرار ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت (١٥٩٦- ١٦٥٠) René Descartes، مُؤسس العقلانية الحديثة، الذي أقر بأن الزمن الفعلي الذي نحياه

هو زمن العقل وسيادة الإنسان، من منظور أن العلم قد جعلنا أسيادا للطبيعة ومالكين لها، وكذا بِحُكم اعتباره الوسيلة الوحيدة والمثلى لمواجهة الجهل والفقر والمرض.[١]

بناءً على ذلك، لم يكن من السهولة على كثير من عُقلاء الألفية الثالثة، أن يتصورا أو يتخيلوا أن فيروسا صغيرا لا يُرى بالعين المجردة، سيكون آداة رعب وفتك، وكذا وسيلة حجر وسلب للحرية؛ هذا ما حدث بالفعل مع «جائحة فيروس كورونا المستجد» (COVID-19 Coronavirus 2019)، الذي بدأ في الانتشار من مدينة ووهان الصينية Wuhan، بداية من أوائل شهر ديسمبر ٢٠١٩,[٢] لقد أفضى هذا الوباء إلى تطبيق إجراءات التباعد الاجتماعي، حيث اضطرت عديد الحكومات إلى تجسيد مبدأ العزلة، من خلال توقيف حركة الطيران وصولا إلى الفصل بين المدن درءًا لتفشي عدوى الوباء القاتل، الأمر الذي أدى إلى انتشار حالة قصوى من الخوف والقلق، عبر إعلانات يومية لحالة الخطر من خلال التنبيهات والتحذيرات، وكذا الأرقام المخيفة لأعداد المصابين والأموات.

في العلاقات الممكنة بين الدين والوباء:

العلاقة بين الوباء أو الكارثة في شكلها العام من جهة، والدين من جانب آخر، مسألة تحتاج لكثير من التأمل والاستقصاء، إن أمر العلاقة شبيه بتلك الزُمرّدة التي تُحيل حين النظر إلى تَعدد في الألوان والأشكال، الأمر الذي يجعل من الإحاطة التامة لمعرفة نهائية للشكل واللون مسألة غير مضمونة، بالمعنى الذي يُشير إلى تعدد وتشابك علائقي. ولتأكيد وتوضيح هذا الهاجس، لنتساءل: ما العلاقة بين الدين والوباء؟

في مَحطة أولية، ولتجلية السؤال والإجابة على حد سواء، تتضح أهمية المدخل المفاهيمي، حيث يُشير الدين السماوي إلى الشّرع الإلهي الذي يُتَلَقى عن طريق الوحي.[٣] في حين يُحيل شكله العام إلى الاعتقاد، الإيمان والتسليم

الذي يَحُوزه الفرد، في ضوء جُملة العلاقات، على غرار علاقته بذاته، غيره ومُحيطه، إضافة إلى جُملة المبادئ والقيم والقناعات التي تحدد سُلوك الفرد، ومن ثمة علاقته بالقوة، أو القوى المفارقة التي يعتقد بكينونتها ويُؤمن بوجودها.[٤] بالمقابل، يُحيل الوباء إلى السمة المفاجئة والسريعة التي ينتشر من خلالها المرض المعدي الذي يصل إلى مرتبة الجائحة حينما يصعب السيطرة عليه، نتيجة سرعة العدوى الظاهرة من عدد المصابين في مُختلف أصقاع العالم.[٥]

ومثال ذلك ما حدث مع فيروس كورونا المستجد، (Coronavirus2019 (COVID-19))، حيث أعلنت مُنظمة الصحة العالمية يوم الأربعاء ١١ مارس ٢٠٢٠، عن قرار مفاده اعتبار وباءً عالميا، نظرا لقدرته الرهيبة على الانتشار خارج حدود الدول، وكذا لخطورته بوصفه اعتلالا تنفسيا حادا يَملك خاصية الإبادة.

بناءً على ما سبق، يظهر أن تحديد

العلاقات الممكنة والمتشابكة بين الدين والوباء يتأسس على فهمين سواء في النظرة للدين أو الوباء، إذ وبخصوص الدين يَبرز فهم عام مُشترك بين مُختلف الأديان، سواءً من خلال التأمل في فكرة الدين في صيغتها العامة، أو في المشترك بين الأديان، وذلك عن طريق تجاوز التصورات النمطية والأحكام المسبقة، بُغية البحث في الإضافات التي يُمكن أن يُقدمها الفهم الحضاري للأديان في مُجابهة الوباء، ومن ثمة التقليل من خطورته. بالمقابل يرتبط التصور الثاني بالتفكر داخل دين مُعين، وذلك بغية النظر إلى شكل تعامله مع الوباء على مستوى التمثل والواقع.

أما بخصوص الوباء، فإن الخلفية الدينية للتعامل معه، تُحيل إلى صورتين أساسيتين تُحددان واقع هذه العلاقة عبر مُستويين من الخطاب؛ تتعلق الصورة الأولى بفهم يتأسس على الأخذ بالأسباب، مع الحرص والالتزام بضوابط السلامة والوقاية، وذلك اعتمادا على روح الدين ومقاصده. ومن ثمة؛ فإن التوسل بمنهج القراءة المقاصدية يعني بالضرورة المماهاة مع ما تقتضيه فكرة المقاصد، من خلال الدعوة إلى التيسير وتجسيد قيمة الإحسان في جلب المصالح ودرء المفاسد على مستوى الدين، النفس، العقل، المال والنسل.[٦]

بالمقابل، تُحيل الصورة الثانية إلى شطط ومُغالاة في تمثل معنى التوكل والقضاء والقدر، يبرز ذلك من خلال اعتبار المرض خدعة لا تَخرج عن إطار نظرية المؤامرة. إضافة إلى عدم الحرص والالتزام حينما يتعلق الأمر بالتنبيهات الصحية ومن ثمة الأخذ بالأسباب، على غرار الالتزام بقواعد الوقاية، التباعد والحجر الصحي. وفي السياق نفسه، يستند هذا التصور في جزئه الأكبر على فكرة مفادها، أن الوباء رسالة سماوية تُعبر في حقيقتها عن عقاب أو بالأحرى عذاب دنيوي نتيجة عدم الالتزام بضوابط الدين، الأمر الذي يُفضي إلى اعتبار ذلك دعوة صريحة إلى استخلاص الدرس بالأوبة والعودة إلى فضاء الإيمان.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن

الفُهومات السابقة تتأسس على طبيعة الوعي الديني لدى الأفراد والجماعات، دون أن يعني ذلك توجها نحو التعميم، بقدر اعتبار ذلك واقعا له مُمثليه، إذ يخضع الأمر في نهاية المطاف إلى طبيعة التدين ومُستواه، إضافة إلى مُتغيرات أخرى على غرار الجنس، السن، المستوى التعليمي، المستوى الاجتماعي، الوضع المادي، طبيعة البيئتين الاجتماعية والجغرافية..الخ). هذا ما يُمكن إدراكه من خلال طبيعة تمثل الفرد للعلاقة بين الدين والعلم، ومن زاوية أخرى في سلوكيات الأفراد، والتي تأرجحت بين قُطبي الحرص والموضوعية التزاما بضوابط العلم، وبين عدم الاكتراث ومن ثمة الاستغراق في ذاتية مُسرفة. في الحالة الأولى يُمكن الإحالة إلى تفسير لسان الدين ابن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٤)، العالم الموسوعي الذي شملت معارفه الطب، الدين، الأدب، التاريخ والسياسة، وذلك من خلال كتابه «مقنعة السائل عن المرض الهائل.» والذي ألفه نتيجة اجتياح وباء الطاعون مدينة غرناطة سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م)، حيث أفضى الوباء إلى نتائج وخيمة أقساها على قلبه وفاة أستاذه ابن الجياب الغرناطي (١٢٧٤- ١٣٤٩).[٧] لقد عزز ابن الخطيب بفهم مُستنير للعلم والدين على حد سواء، أهمية الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي لمحاربة الوباء، حينما أثنى على سلوك الزاهد ابن أبي مدين الذي عزل نفسه وأهله في منزله، الأمر الذي أنجاه بمقابل هلاك الكثيرين، وفي السياق نفسه دحض فكرة سادت في عصره مفادها اعتبار الوباء عقابا من لدن الخالق، لصالح فكرة السببية الكامنة في الانتشار نتيجة العدوى، وهو الأمر الذي يجد تبريره كما يقول ابن الخطيب من الأدلة الواقعية الكامنة في الملاحظة، التجربة والاستقراء.[٨]

وفي السياق نفسه، وعلى مُستوى السلوك تجدر الإشارة إلى الالتزام الواضح في حالات عديدة ومن طرف أشخاص كُثر بتطبيق الحجر والتباعد الفعلي، ومن ثمة التطبيق الصارم لإجراءات الوقاية، حيث تم تجسيد ذلك في مجال الدين- على سبيل المثال لا

الحصر- في اضطرارية غلق الأماكن المقدسة على غرار مكة المكرمة والفاتيكان، وكذا أماكن العبادة خوفا من تفشي الوباء، هذا ما تبرزه عبارة «صلوا في بيوتكم» التي أصبحت مرافقة للآذان.

بمقابل ذلك، تظهر فُهومات وسُلوكات مُضادة تجد في الدين معينها، حيث تتوسل بجملة من التبريرات والتأويلات، تُعبر من خلالها عن استغراقها في الجبرية الدينية، ولعل هذا ما سعت إلى ترويجه عدد من وسائط التواصل والإعلام، إما لغرابته أو بوصفه سبقا صحفيا، ومثال ذلك ما قام به "لي مان هي (Lee Man-hee)، رئيس كنيسة شينتشونجي (Shincheonji Church)، في مدينة دايغو الكورية الجنوبية، الذي لم يعترف في البداية بوباء كوفيد ١٩، الأمر الذي تسبب في إصابة أكثر من ٩٠ آلاف شخص بالوباء القاتل، هذا إضافة إلى انتشار مقاطع في منصات التواصل الاجتماعي، تُصور ما قام به بعض الزوار في أضرحة مدينتي قم ومشهد، حينما قاموا بتحدي عدوى الوباء، عن طريق تقبيل ولعق ولمس الأضرحة والمزارات.

فاعلية الطاقة الروحية في مواجهة الوباء:

تُحيل الطاقة الروحية إلى القدرة الداخلية العميقة للإنسان، إنها دَفق

معنوي وحافزية نفسية تجعل الكائن العاقل نشيطا في الفعل، آملا في الحياة، مُؤمنا أنه بعد كل فرصة أخيرة ثمة فرصة أخرى. إنها شعور يعتري الإنسان حينما تتملكه طاقة إيجابية، بمقابل طاقة سلبية تُسبب الكآبة والكراهية، كما تُعد سببا رئيسا لإهدار كافة المؤهلات والقدرات.[٩]

كما ينبغي الإقرار بأن الطاقة الروحية لا ترتبط في مُعظم الأحوال بقوة الجسد، فرب شخص قعيد يُعاني إعاقة، بيد أنه يملك نفسا عميقا وصورة ايجابية عن ذاته وإمكاناته تجعله مُؤثرا في مُحيطه. وما دامت كذلك فإنه من العُسر تدميرها بحُكم سمتها الميتافيزيقية، فهي دون شكل، أو وزن الأمر الذي يُؤسس لصعوبة في تفسيرها وتصنيفها.[١٠] في هذا السياق يقول عز وجل: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾. (سورة الإسراء، الآية ٨٥).

ومادام الأمر مُتعلقا بالبحث، ومن ثمة إضاءة أثفية فاعلية الطاقة الروحية في مواجهة الوباء ضمن إطار ما تُقدمه الأديان في إطار تصورات قيمية وحضارية، تُعلي من شأن الإنسان بوصفه مركز الكون، كما تُعلي أيضا من الدين بوصفه مُحفزا ومصدرا بالغ الأهمية للطاقة الروحية. فإن التصور المناسب لهذا الفهم يُؤسس للمواءمة بين المعرفة العلمية القائمة على التجربة إلى جوار المعرفة الميتافيزيقية المؤسسة على الاعتقاد، الأمر الذي يُفضي إلى عُسر تطبيق المنهج العلمي في صيغته التجريبية، بِحُكم الطبيعة المعرفية للطاقة الروحية البارزة من خلال عُسر التصنيف وصعوبة قياس نسبة التحقق.

وما دامت الطاقة الروحية مُرتبطة بجوهر الإنسان، في تأكيد على سمتها العميقة التي تُحيل إلى سلامة الإنسان النفسية، وكذا قُدرته على التحمل ومُواجهة الصعاب، بدءا بحل المشكلات الخاصة.[١١] فإن حُضورها الخارجي وتجسُدَها الميداني يَبرز على الخصوص أثناء المعضلات والأزمات من خلال قناعات وسُلوكات بشرية، تَجد حُضورها عبر الإرادة، التفاؤل، المُشاركة والصبر حين الشدائد؛ وهو ما

يُشير إليه الرسول الكريم ﷺ في الحديث الشريف الذي رواه مُسلم بقوله: «**عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا له**».

إن السمة الروحية للطاقة في هذا المقام، لا يعني البتة نفي تجلي العقل، حيث أن للروح علاقة وطيدة بالعقل، بِحُكم حُضورهما في الذات الإنسانية، كما أن التفكير خاصية إنسانية بامتياز، في إحالة إلى مُجمل الوظائف والعمليات الذهنية المُجردة التي تجد حُضورها عبر السلوك البشري،[١٢] لذلك تَندغِم الطاقة الروحية مع سمة التكريم التي يُحظى بها الإنسان، الذي فضَّله الله تعالى وكرَّمه بالعقل وملكة التفكير ليكون جديرا بتحمُّل المسؤولية المقرونة بحريته ضمن إطار منظومة الحقوق والواجبات، ليكون الهدف الأخير جدارة في نيل واستحقاق التكريم الإلهي. يقول عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾. (سورة الإسراء، الآية ٧٠).

بناءً على التمثل السابق للإنسان، أبانت الأزمة الصحية التي مرّ ويمرّ بها العالم، ومثال ذلك من خلال تفشي وباء «كوفيد ١٩» عن صور سلبية عديدة، بمقابل صور ومواقف إيجابية لا حصر لها، تقف جنبا إلى جنب مع إثبات فاعلية وأهمية الطاقة الروحية، بوصفها عنصرا حيويا في هذا المجال، حيث تُعَد معينا بالغ الأهمية أمام ما يُحدثه الوباء من تركات ومآسٍ. إنها تُشكل سندًا نفسيا وبلسما روحيا بالغ الأهمية، تمد صاحبها بالسكينة والطمأنينة مُتجاوزا في ذلك حالات الرعب والقنوط المرتبطة بعوالم الوباء. وفي الوقت نفسه، تملك تجليًا خارجيا على الصعيد الاجتماعي بوصفها عامل تضامنٍ وتراحمٍ، عن طريق مُقاسمة الأحزان ومُضاعفة الأفراح، ومثال ذلك طريقة التعامل مع المرض أو حالات الفقد والموت، أو توطيد خاصية التضامن الاجتماعي من خلال المساعدة النفسية والمادية للأفراد المصابين والمعوزين على حد سواء. ويتعدى الأمر إلى مُؤازرة وتشجيع كل

الفاعلين الاجتماعيين، على غرار الأطقم الطبية، التي وجدت سندها في الطاقة الروحية المستجلبة داخليا بوصفها خاصية مهنية وأخلاقية، وكذا من خلال منطق التشجيع والاعتراف الذي وجدته الأطقم الطبية في كثير من الحالات، والذي اعتبر مصدرًا بالغ الأهمية لشحن وحشد الطاقة الروحية، في ظل إنهاك شديد سببه وباء لا يعرف الرحمة.

هذا، وتجدر الإشارة، إلى أن التأكيد على أهمية وفاعلية الطاقة الروحية لا يعني البتة اعتبارها بديلا عن العلاج الطبي، أو سببا يدفع الفرد إلى عدم الاكتراث بثقافة الوقاية، على غرار إهمال إجراءات التباعد الاجتماعي المرافقة للحد من انتشار الوباء. على العكس من ذلك تماما؛ إن تحقيق فاعلية الطاقة الروحية رهين بالحرص والالتزام بإجراءات الوقاية، وقبل ذلك، الاعتراف بأهمية الدواء بوصفه تجسيدا لمنطق السببية في مسار مُعالجة المرض، وحينما يتوفر هذا الشرط- أقصد شرط الأخذ بالأسباب- فإن إمكانية تحقق جدوى الفاعلية يصير أمرا واردا جدا. واردًا؛ مادام الأمر مُرتبطا بالحديث عن تواجد طاقة روحية تشحن إرادة الإنسان، لتجعله مُتفائلا، صبورا عند الشدائد، فعّالا عند المواقف.

إن الطاقة الروحية ليست مُحصلة نهائية لدروس نظرية، كما أنها لا تُعبر عن مزاج عابر أو أقوال مُنقطعة عن الفعل. إنها في حقيقة الأمر بصمة فردية وسِمة شخصية يتم إنضاجها وتطويرها من خلال تجارب ومعارك الحياة المختلفة، فيكون للمطابقة بين القول والفعل آثرها البارز في تشكيل طاقة ايجابية تجد حُضورها حين الحاجة.

في السياق نفسه، تتضح أهمية التنشئة الأسرية والبيئتين الاجتماعية والطبيعية في تعميق وإنضاج الطاقة الروحية، كما تتضح الأهمية البالغة لطبيعة إدراك الفرد للمفاهيم المؤسسة لقناعاته،على غرار القناعات الفكرية والدينية التي عادة ما تكون مُحفزة للفعل.

ولإدراك أهمية النموذج يُمكن الاستئناس بنظرية التعلم الاجتماعي، Social - Learning Theory

لصاحبها العالم النفس الأمريكي ألبرت باندورا Albert Bandura.[١٣] حيث عمد في نظريته إلى توطين سلوك التعلم بالملاحظة ومُحاكاة وتقليد النماذج الناجحة، بالتركيز على مِفصلية وأهمية السياق والظروف الاجتماعية والثقافية في حصول التعلم، ومن ثمة الفاعلية المفضية لتعزيز وتوطين الطاقة الإيجابية المساعدة على مواجهة مُشكلات وأعباء الحياة، بما في ذلك حالات المرض والوباء، وهو المسار الذي تُحيل إليه الحكمة التي تقول: «من أجل أن تنجح، عليك أن تجرّب الفشل لكي تعرف ما يجب عليك عدم فعله في المرة القادمة.»

إن تفعيل مفهوم الأسوة أو القدوة، كما أبانت عنه نظرية التعلم الاجتماعي أو التعلم بالملاحظة، يعني بالضرورة الاحتذاء بالمنارات البشرية السامقة التي تحفل بها الحياة على مستوى التاريخ أو الواقع، أتحدث هنا عن نماذج بشرية لأنبياء، مصلحين، علماء، آباء، بُسطاء وكادحين..... أبانوا عن طاقة روحية مُنقطعة النظير في مواجهة الصعاب، والمشاركة الاجتماعية... الأمر الذي يُثبت حيازة طاقة إيجابية تجد فاعليتها وحضورها من إيمان راسخ بمعتقد أو فكرة، بيد أنها تحتاج في البدء إلى استبطان واستبصار داخلي لمعرفة النفس العميقة المعبر عنها بالروح، انسجامًا مع قوله عز وجل: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾. (سورة الذاريات: ٢٠، ٢١).

في هذا السياق، ومادام الأمر مُرتبطا بإثبات فاعلية الطاقة الروحية في مُواجهة الأمراض والأوبئة، يُمكن الإشارة إلى نموذجين ناصعين ينتميان من حيث التنشئة إلى فضاءين ثقافيين مُختلفين، لكنهما يتقاطعان في المشتركات الإنسانية، يتعلق الأول بشخصية العالم الفرنسي لويس باستور (١٨٢٢-١٨٩٥) Louis Pasteur، مُخترع علم البَسترة، ومُطور اللقاح الفعّال ضد داء الكلَب، الذي كان داءً مُروعا وفتاكا في عصره، وقد كانت وفاة أولاده الثلاثة بداء التيفوئيد، إضافة إلى سعيه الحثيث لانقاد البشرية من الأمراض

والأوبئة السائدة حينذاك، أسبابا وجيهة، كما يقول المتخصصون في سيرته، ليتخصص في علم الأوبئة والطب الوقائي.[١٤]

في حين تُحيل الشخصية الثانية إلى الدكتور عادل محمود (١٩٤١-٢٠١٨) الطبيب الأمريكي ذو الأصول المصرية، حيث يُعد واحدا من أشهر المختصين العالميين في الأمراض المعدية والطب الوقائي، وقد كان دافعه الأول لولوج هذا المجال هو وفاة والده بمرض الالتهاب الرئوي. من أهم مُنجزات الدكتور عادل محمود تطوير اللقاح الرباعي للحصبة والحصبة الألمانية، إضافة إلى تطوير لقاح يمنع عدوى فيروس الروتا Rota virus، وهو فيروس مُهدد لحياة الأطفال.[١٥]

في الحاجة للطاقة الروحية: الدرس الخالد

في عالم مليء بالضوضاء والقلق، أصبح من اللازم كما يقول واين دير Wayne Dyer، أن يتم التوجه نحو تعميق الحكمة باستجلاب وتجذير الطاقة الروحية، وسيكون الأمر أكثر ضرورة حينما تُصيب هذه الضوضاء وهذا القلق العالم الداخلي للإنسان، حينما تعتريه الكآبة والمرض، فيصبح

التفكير في الحل مدخلا ضروريا لتحصيل الطمأنينة والشفاء، الأمر الذي يُؤسس لتوطيد الانسجام بين الجسد والميتافيزيقا، العلم والدين، عبر فتح مسارب الإمكان وآفاق الأمل؛ لأن الإقرار باستحالة تنفيذ ما، يعني بالضرورة «إعطاء إيحاء وقوة للفكر بأن يجعل الوصول إلى لحظة القرار أمرا مُستحيلا.»[١٦]

ومادام انتشار الوباء في مُجتمع مُعين يُعد أزمة مُعقدة تُفضي إلى أزمات مُختلفة تنعكس على الحياة الفردية والاجتماعية، فإنه من الواجب التفكير في طرائق تفعيل الطاقات الروحية للأفراد، فيكون للدين في هذا المقام حُضوره البارز، بوصفه البلسم الروحي الذي يُساعد الإنسان على التكيف مع الأوضاع العسيرة، ومن ثمة تحقيق الطمأنينة. فيكون سؤال: ما العمل؟ مُحركا وحافزا للتفكير في الحلول والمخارج، عِوض السقوط في براثن الكآبة، ومن ثمة الإصابة المزمنة بالحجر والتحجر وانتظار النهايات.[١٧]

بناءً على ما سبق، وجب التأكيد، أنه وعلى الرغم من هذه العلاقة المتشابكة من خلال الأنماط والصور المتعددة التي تُحيل إليها علاقة الدين بالوباء، إلا أن حضور الدين في هذا الإطار يبقى بارزا، بحكم أسباب ومرجعيات عديدة، فنحن أمام عصر يُوصف بأنه ديني بامتياز على حد تعبير المفكر الفرنسي أندري مالروAndré Malraux،[١٨] وذلك نتيجة حضور سؤال الدين وسيطرته على المشهد الفكري والاجتماعي دحضا أو تصديقا، هذا إضافة إلى اعتباره الملمح الرئيس لهوية كثير من الأفراد والمجتمعات.

وما دام الأمر كذلك، فقد عمدت حكومات، مُؤسسات مُتخصصة ومراكز بحثية مُتخصصة في الشأن الديني وفي حوار الأديان والحضارات إلى التفكير مليا في المسألة الدينية، من أجل استثمار بُغية تأسيس تواصل فعّال بين الأفراد والمجتمعات. في هذا الإطار، أقصد إطار الترشيد والتدبير المعرفي وإعطاء المعرفة العلمية دورها في إحداث تنظيم الشأن الديني، يُمكن الإشارة إلى التجربة البريطانية في

تأسيس المراكز البحثية المهتمة بهذا المجال، على غرار لجنة الدين والمعتقد في الحياة العامة البريطانية The Commission on Religion and Belief in British Public Life (CORAB)) سنة ٢٠١٣، المؤطرة من لدن معهد وولف Woolf Institute بجامعة كمبريدج، والمتخصص في الدراسات الدينية والعلاقات بين الأديان.

وفي السياق نفسه، عمدت الوزارة المهتمة بالمجتمعات المحلية في بريطانيا، إلى ربط «تدبير الشأن الوبائي» بالشأن الديني، من خلال إشراك المجتمعات والطوائف الدينية والزعماء الدينيين في حملات مُحاربة الوباء، عبر توعية أتباع هذه المجتمعات الدينية بالوباء، خُطورته وإبراز طرق الوقاية منه، كما يتضح من خلال الكتاب الصادر في هذا المجال شهر ماي ٢٠٠٩، والمُعنون ب: المجتمعات الإيمانية والأنفلونزا الوبائية: إرشادات للجماعات الإيمانية واللجان المحلية الخاصة بوباء أنفلونزا Faith Communities and) Pandemic Flu: Guidance for Faith Communities and Local Influenza Pandemic Committees).

إن انتشار الوباء في مجتمع مُعين، يعني بالضرورة أزمة مُعقدة، هذا ما أكده على سبيل المثال أستاذ التاريخ المعاصر الفرنسي لوران-هنري فيغنو(Laurent-Henri Vignaud) ، في حوار تم نشره في مجلة «لوموند» الفرنسية، بتاريخ: ١٢/ ٠٤/ ٢٠٢٠، حيث اعتبر الوباء مُعضلة وكارثة مُهددة لكيان الأفراد والمجتمعات، إنه على حد وصفه «يهدد الروابط الاجتماعية، ويطلق العنان لشكل خفي من حرب أهلية يكون فيها الجميع حذراً.»

وبمقابل ذلك ثمة دروسا مستفادة، ينبغي للأفراد أن يدركوا كُنهها ومَقاصدها، عبر نسيان الصدمات واستخلاص العِبر؛ العِبَر من تبعات العزل الاجتماعي، غياب الدخل المادي نتيجة تعطل وفقدان بعض المهن، إضافة إلى تبعات غلق المدارس، دور العبادات، المنتزهات والمراكز التجارية...

استخلاص العبر من تلك الحالات الوجودية التي تعتري الإنسان، حينما يجد نفسه بعيدا عمّا ألفه اجتماعيا. أو بعيدا عن عائلته؛ إذ ثمة من الأطباء من لم يلتق بوالديه أو أسرته بِحكم طبيعة عمله وخوفه من أن يكون سببا في انتقال العدوى، مكتفيا في ذلك بمكالمات هاتفية ولقاءات افتراضية عبر منصات التواصل الاجتماعي، الأمر الذي يُجسد واقعة لها خصوصيتها، أسبابها وتجلياتها.

ويُجسد في الوقت عينه مُفارقة، حيث نجد أنفسنا أما فئتين؛ فئة خطوط الدفاع الأولى كحال الأطباء الذين لا يجدون وقتا لالتقاط الأنفاس،* وفئة أخرى اضطرتها ظروف العزل والتباعد الاجتماعي إلى استيطان الراحة.

إن انتشار الوباء يُفضي بالضرورة إلى مفاعيل عكسية، تُعبر عن تلك الدروس المستفادة، التي ينبغي للأفراد إدراكها جيدا، بِحُكم كونه فرصة وامتحانا لترقية وتعميق الطاقة الروحية، بوصفها الخلفية الرئيسة لجهاز المناعة، الذي يُعتبر «الخط الدفاعي الأول.» لذلك فإن تقوية جهاز المناعة يعني بالضرورة امتلاك قوة ووقود يُعبران عن حيوية مُتدفقة، تُشكل دافعية نحو مُجابهة صعاب الحياة. وفي الوقت نفسه، فإن الغوص في أعماق الذات الإنسانية يُبرز فاعلية الطاقة الروحية بوصفها قوة مُحفزة على العمل والإبداع، حيث تجد مُبررات حضورها القوي من طبيعة التنشئة الاجتماعية، وكذا من القناعات الفكرية والدينية. هذه الأخيرة؛ تُعلن عن حُضورها عبر خاصية الإيمان ومَحَمَدَة العمل الصالح، حيث يُؤسس الفرد لأحاسيسه، قناعاته وسلوكاته انطلاقا من مُعطى عقدي يتماهى مع مرتبة الإحسان، مما يجعل الثناء الدنيوي مسألة عارضية.

للإشارة، فإن تحقيق المقاصد الواردة في الفقرة السابقة، رهين بالتعامل الحصيف مع مسألة بالغة الأهمية، إذ وفي إطار عالمية الخطر، في ظل تنوع اجتماعي حاصل يُفضي إلى تنوع اثني، لغوي وديني، فإن المواجهة الحقيقية للوباء، تقتضي في مقام أول تحقيق مواطنة راشدة تحث أفرادها على احترام

القوانين، بما في ذلك احترام إشارات المرور وقوانين العزل والتباعد الاجتماعي وارتداء اللُثَم أثناء فترة الوباء، مُواطنة راشدة مُؤسسة على منطق الحقوق والواجبات، خارج إطار التعصب للأعراق والأديان، بما ينسجم مع تمثل يُماهي بين الخصوصية والإنسانية عبّرت عنها الباحثة الكندية أتوود إلينور مارغريت (Margaret Atwood)، مفاده: «أن يأتي اليوم الذي يُدرك فيه جميع الناس أن هنالك عِرق واحد فقط يُسمى «العِرق البَشري،» وأننا جميعا ننتمي إليه.»[٢٠] وذلك، من خلال تجسيد تصور مُعبر عن تحقق ميداني لفاعلية القوة الروحية في معناها الإيجابي، مفاده أن الوجود الإنساني خاضع لحكمة إلهية اقتضت ارتباطه بمقصدية التعاون والتعارف القائمة على واقعية التنوع والتعدد. وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ، إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (سورة الحجرات: الآية ١٣).

الخاتمة:

ليس من السهل تحديد علاقة نهائية بين الدين من جهة والمرض والوباء من جهة أخرى، بِحُكم خاصية التصورات المختلفة، حينما يتعلق الأمر بقراءة وتحليل هذه العلاقة استنادا إلى مرجعيات فكرية وثقافية، بعضها يقر بالقطيعة الإبستمولوجية (Epistemological Rupture)، على غرار الابستمولوجي الفرنسي غاستون باشلار (١٨٨٤- ١٩٦٢) Gaston Bachelard. وبين تصور يستند إلى ضرورة الاستمرارية والتقاطع، الأمر الذي يُفضي في كثير من الأحيان إلى تجسيد واقعي للخرافة والدجل. وبين رؤية ثالثة تحاول بطريقة علمية وموضوعية البحث في جملة التقاطعات المعرفية التي تجمع بين الدين والعلم. ومن ثمة، فإنه وعلى الرغم من هذه العلاقة المتشابكة من خلال الأنماط والصور المتعددة التي تُحيل إليها علاقة الدين بالوباء، إلا أن حضور الدين في هذا الإطار يبقى بارزا، بحكم أسباب ومرجعيات عديدة، فنحن أمام عصر

يُوصف بأنه ديني بامتياز على حد تعبير المفكر الفرنسي أندري مالرو André Malraux، نتيجة حضور سؤال الدين وسيطرته على المشهد الفكري والاجتماعي دحضا أو تصديقا، وكذا اعتباره الملمح الرئيس لهوية كثير من الأفراد والمجتمعات.

لقد أبان الانتشار المرعب لفيروس كورونا المستجد، (Coronavirus 2019 (COVID-19))، في زمننا المعاصر عن واقع حضور الدين، سواء من خلال الأسئلة التي يُعلن عنها حضوره، على غرار سؤال الموت، الألم، الخير والشر... الخ). وفي الوقت نفسه، بوصفه مصدرا بالغ الأهمية للطاقة الروحية، وبحكم اعتباره موئلا وملاذا لاحتواء الآثار المدمرة للوباء، خُصوصا تلك المتعلقة بالجوانب الروحية والنفسية؛ ضمن هذا الإطار يكفي النظر في إطار الوباء وعلى مُستوى التاريخ والواقع إلى جُملة التضحيات والنشاطات التي كان الدين مُحركها الأساس، سواءً من زاوية القيام بالأعمال الخيرية على غرار مُساعدة المحتاجين، أو تجسيد الوقاية درءًا للعدوى، أو تفعيلا للطاقة الروحية بوصفها طاقة ايجابية وخَيّرة، تجعل الإنسان قويا، آخذًا بالأسباب، مُحفَزًا على العمل والإبداع، مُؤمنا بالقضاء خيره وشره.

وهي النتيجة الأساسية التي تم التوصل إليها في هذه الورقة البحثية شريطة، إسنادها نظريا وفعليا بالاستنتاجات، المقترحات والتنبيهات المعرفية التالية:

إن تحديد جُملة العلاقات بين الوباء والدين، ينبغي أن يتأسس في مقام أول على فهم العلاقة بين العلم والدين. إلا أن التحقق الإيجابي لفاعلية الطاقة الروحية في إطار قيمي وحضاري، يجعل الدين وفق هذا الفهم، مدخلا ضروريا بالغ الأهمية في السياقات التي يحوز فيها الدين على دور مِفصلي، بوصفه المنطلق الرئيس لقناعات وسلوك عدد من الأفراد والمجتمعات.

إن الطاقة الروحية ليست دروسا نظرية تُتَعَلم. إنها مُمارسة تستند إلى الوعي، وقبل ذلك إلى قناعات عقدية وفكرية، يتم ترقيتها بالسلوك القويم،

المعبر عنه بالعمل الصالح. وفي السياق نفسه، إنها تُمثل خطا دفاعيا بالغ الأهمية، حيث تُشكل سندا وحافزا لمختلف الأعمال والأفكار، ومن ثمة فإن مُواجهة فعالة للوباء يعني بالضرورة ترقية وتعميقا للخط الدفاعي الأول.

لا يُمكن البتة اعتبار الطاقة الروحية بديلا عن العلاج، بقدر اعتبارها خطا دفاعيا أوليا وضروريا، الهدف من ورائه تقوية المناعة النفسية، إضافة إلى اعتبارها سندا وحافزا لمختلف الأفكار والأعمال في صيغتها اليومية أو الإبداعية.

إن تحقيق الطاقة الروحية لفاعليتها المأمولة في مواجهة مُختلف الأسقام والأوبئة، رهين بشروط ذاتية تُعد مُحصلة خُصوصية ونشاط فردي، وكذا بشروط موضوعية تستند في مقام أول، إلى ما تقوم به الجهات المسؤولة والمتخصصة، عبر إحداث ما يُسمى ب: «التخطيط الوبائي،» بغرض التحكم في انتشار الوباء، والتقليل من خُطورته وتبعاته على المستوى الصحي، الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

أخيرًا وليس آخرا، إن تحقيق الطاقة الروحية لفاعليتها المأمولة، رهين بقدرة مُؤسسات التنشئة (الأسرة، المدرسة والمجتمع) على تفعيل تواصل إيجابي، ومن ثمة استنهاض دور العقل والقلب، وجعل ذلك سبيلا لإيجاد إنسان متوازن ومُتحضر يُفكر ويَشعُر قبل الفعل وأثناءه وبَعده، وهو الإنسان الحضاري المأمول الذي يَستحق بالاسم والمعنى سِمة التكريم والتشريف الإلهي.

الهوامش:

1- Cohen H Floris, The Scientific Revolution: Innate Properties, Persona University of Chicago Press, USA, 1994, P 191.

2- Husain Akbar, Coronavirus Pandemic: Effects, Prevention and Management, The Readers Paradise, New Delhi, India, 2020, P 15.

3- Bascom John, A Philosophy of Religion, or, The Rational Grounds of Religious Belief, The G P Putnam's Sons, New York, USA, 1876, P 208.

4- Thibaud Robert - Jacques, Dictionnaire des Religions, Editions de la Seine, Paris, France, 2005, P 230.

5- McMillen W Christian, Pandemics: A Very Short Introduction, Oxford University Press, Oxford, UK, 2016, P 08.

٦- بن عاشور الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، منشورات دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت، 2011، ص70.

٧- بوفلاقة محمد سيف الإسلام، التاريخي والأدبي في كتاب الإحاطة بأخبار غرناطة، منشورات دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع، دار الكتب العلمية، الرباط وبيروت، 2014، ص 10.

8- McMillen W Christian, Pandemics: A Very Short Introduction, P 18.

9- الصادق محمد عبد الفتاح، الطاقة الايجابية مفتاح نجاحك، منشورات وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، 2018، ص 07.

١٠- رضوان محمود عبد الفتاح، الطاقة الروحية وأسرار النفس البشرية، منشورات المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، 2013، ص 12.

11-Singer A Micheal, The Untethered Soul, New Harbinger Publication, Noetic Books, Institute of Noetic Sciences, Oakland, USA, 2007, P 81.

12- Morfaux L. M, Vocabulaire de la Philosophie et des Sciences Humaines, Armand Colin, Paris, 1980, P 264.

13- McAdams Dan, The Person: An Introduction to the Science of Personality Psychology, John Wiley & Sons Inc, New York, USA, 2008, P 102.

14- Higenkamp Kathryn, Environmental Health: Ecological Perspectives, Jones & Bartlett Learning Inc, Massachusetts, USA, 2005, P 58.

١٥- السيد مي، رحيل «عادل محمود» بروفيسور اللقاحات الذي أنقذ الملايين، موقع إضاءات، مجلة إلكترونية، 21/ 06/2018:
/https://www.ida2at.com/dr-adel-mahmoud-professor-vaccines-who-saved-millions-lives

16- Dyer W Wayne, There's Spiritual Solution to Every Problem, Quill, Harper Collins Publishers, New York, USA, 2003, P 183.

17- Wuthnow Robert, Be Very Afraid: The Cultural Response to Terror, Pandemics..., Oxford University Press, Oxford, UK, 2010, P 05.

18- Aubert Raphaël, Malraux ou la Lutte avec l›Ange: Art, Histoire et Religion, Edition Labor et Fides, Genève, SUISSE, 2001, P 11.

* في هذا الإطار، يُمكن الحديث عن الإسهامات الجليلة التي قدمها الطبيب الكويتي المعروف «عبد الرحمن السميط» (1947-2013) مُؤسس جمعية العون المباشر، والملقب ب: «خادم فقراء إفريقيا.» حيث خصص نفسه، وقته، ماله وجهده للعمل الخيري، بما في ذلك مُعالجة المرضى وضحايا الأوبئة، بِحُكم مِهنته بوصفه طبيبا، مُنطلقا في ذلك من شعوره بالواجب الإنساني ومن إيمان وتمثل حضاري للدين الإسلامي الحنيف.

20- Mooney Linda, Knox David & Schacht Caroline, Understanding Social Problems, Wadsworth, Cengage Learning Publishing, Belmont, USA, 2008, P 336.

عبقرية الإسلام في وقاية الإنسان
وبناء الصحة العقلية والنفسية

زمن انتشار الوباء والآلام

د. علاء الدين آل رشي

بعد سنين طويلة خلت سادها الطيش السياسي، والتهور العسكري، والتراجع الاقتصادي، والتدهور المناخي؛ لم يكن من المتوقَّع أو- للدقة أكثر- كان من أقل النظريات ترجيحاً من بين كل السيناريوهات الكارثية المتداولة نظرية انتشار وباء يشل الحركة في العالم. بعد أن بلغ الطب مرتبة متقدمة في الكشف والمعرفة لم يكن في الحسبان أن يقف الفتح الطبي متقهقراً مكتوف الأيدي أمام فيروس أكثر ضحاياه ممن يظنون أنهم سيصدونه وهم (الأطباء) لكنهم كانوا أول الحصون المتهاوية أمام هذا الوباء القاتل الذي يسمى كورونا.

كورونا :

يُعرَّف بأنه: «مجموعة كبيرة من الفيروسات التي يمكن أن تصيب الحيوانات والبشر على حد سواء، حيث تسبب أمراض الجهاز التنفسي، سواء التي تكون خفيفة مثل نزلات البرد أو شديدة مثل الالتهاب الرئوي».[١]

وقد نجح هذا في تعطيل كل مناحي الحياة تقريباً، وبلغت الخساير المادية والمعنوية حداً يثير الرعب، ففي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها أكد روجر داو، الرئيس والمدير التنفيذي لجمعية السفر الأميركية أن الولايات المتحدة- كباقي دول العالم- تعرضت لخسائر اقتصادية فادحة منذ تفشي

فيروس كورونا المستجد. وقال داو في تصريحات لشبكة (**سي إن إن**): «إن الاقتصاد الأميركي تكبد خسائر بلغت ٨٠٠ مليار دولار حتى الآن، منها ٣٥٥ مليار دولار في مجال صناعة السيارات وحدها».

وأشار داو إلى أن أزمة كورونا ستزيد من مشكلة البطالة في أميركا، فنحو ٤,٦ مليون عامل في مجال صناعة السفر سيفقدون وظائفهم. وقال الرئيس التنفيذي لشركة يونايتد إيرلاينز، أوسكار مونوز، بدوره إن الأزمة الاقتصادية الحالية أسوأ من الأزمة الاقتصادية التي خلفتها أحداث ١١ سبتمبر.

وقال مونوز في رسالته إلى الكونغرس ووزارة الخزانة نيابة عن حوالي ١٠٠ ألف موظف في شركة يونايتد إيرلاينز: «يرجى التصرف بسرعة لحماية سبل عيشنا، إن التأثير المالي لهذه الأزمة على صناعتنا هو أسوأ بكثير من الانكماش الحاد الذي شهدناه في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر».[٢]

وبعيداً عن الخسائر المادية والبشرية فقد توقع كثيرون أن يسجل بسبب هذا الفيروس حالات كبيرة من التدمير للداخل الإنساني بعد زحفه المتزايد، حيث سيزداد «القلق والاكتئاب والأرق والاضطرابات الإدراكية»[٣] عند من لم يصاب بهذا الفيروس.

وهذا الوضع غير المسبوق المتأتي من تفشي فيروس كورونا دفع بمنظمة الصحة العالمية إلى القيام بنشر سلسلة توصيات للصحة العقلية للسكان، سواء للأشخاص المعزولين أو المسنين أو العاملين في القطاع الطبي.

ومن بين هذه النصائح:

- التصدي للأخبار الكاذبة بسبب تأثيرها السلبي على السكان، والمتأمل في التعاليم الإسلامية يجد أن هذه النصيحة تعد في الترتيل الرباني نصاً أساسياً في بناء القناعات حيث يقول الله سبحانه: ﴿**ولا تقف ماليس لك به علم إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ (سورة الإسراء: ٣٦).

- تشجيع الحوار في حالات الضغط النفسي[٤].

تقول الطبيبة النفسية فاطمة بوفيه:

«إنه مع تفشي الفيروس وتدابير الحجر المنزلي نلاحظ وصول مرضى جدد يعانون أصلاً مشكلات نفسية، هذه الفترة تعرضهم لأوضاع عاطفية صعبة يتعين عليهم إدارتها وتعدد الطبيبة النفسية قائمة المشكلات ومكامن القلق المسجلة لدى مرضاها في الاستشارات (عن بعد)، وهي تشمل:

– الخوف من :الموت – الإصابة بالعدوى – فقدان الأحبة.

– الخلافات في داخل العائلات أو المجموعات الضعيفة أساساً.

– الضجر.

– الانغلاق.

– عدم القدرة على استباق الأمور.

– تراجع المداخيل.

– عدم القدرة على التنقل.

– الانعزال.

– الاضطرار إلى الوقوف مع الذات.

– الهلع لدى مرضى آخرين تولد لديهم شعور بأن أمرًا ما «**ينهار في طريقة عيشنا**».

– كذلك يسود قلق آخر يرتبط بالخوف من الموت جوعا، مما يفسر تهافت المستهلكين على تخزين المنتجات الأساسية، وهو دليل على وجود رد فعل حيوي لا إرادي، وأيضا الشهية الجنسية وهي الشهية على الحياة عندما نخاف من الموت أو من العيش في الوحدة أو فقدان الأحبة»[5].

في مشهد عالمي سوداوي محزن حيث نسمع أخبار الوفيات في ازدياد ليس هذا فحسب بل و في أجواء تصريحات سياسية تدمر نفسية الشعوب وتعد الشعوب بفقد الأحبة. وأثناء الحجب النفسية الكاتمة والأمراض والأوهام والمخاوف تبرز الأسئلة المشروعة الآتية:

– ماذا سيقدم الدين للبشرية بعد عجز الطب والسياسة؟

– هل يملك الدين ترياقاً لهذا الفيروس الخبيث؟ فتعزله وتقهقره وتقهره بعد أن علق المدارس والجامعات والمصانع والمهن وحبس الطائرات وصمم على جرح غائر في النفس البشرية حتى إن الميت منه لم يسلم فهل يغسل أم يحرق أم ماذا يفعل به؟!

– هل بإمكان الدين مواجهة

كورونا؟

حسناً إنني سأجيب القارئ بمقدمة مختصرة مفادها: [نعم] فالدين لم تنته صلاحية ما فيه من شرائع وذلك عبر: ما يبني الإسلام من دعامات عقلية ونفسية تقي الإنسان عبر مقومات الإيمان بالله سبحانه وتعالى التي تمنع السقوط في الضعف والوهم والاستكانة وهي بوابات يدلف منها المرض فيقتل المصاب بها قبل أن يمسه المرض.

وتلك الدعامات هي:

- **الدعامةالأولى: الآجال بيد الله سبحانه وتعالى،** قدرها وحددها، فلا يزاد فيها ولا ينقص منها: «**وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة المنافقون:١١)، ﴿**فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**» (سورة الأعراف: ٣٤)، ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (سورة الروم٤٠:)، كما تحدى الله الإنسان أن يكون لديه القدرة على تقديم الموت وتأخيره: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾، **وقال أيضا :** ﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ (سورة فاطر: ١١)، ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً**﴾ (سورة آل عمران: ١٤٥).

- **الدعامة الثانية ما يرسخ الإسلام من مفهوم التوافق بين القوة النفسية والقناعة الفكرية** وأنه لا تعارض بينعلم الله الأزلي بما هو كائن من أعمار الناس إلى يوم القيامة لا ينفي أن تتمسك بكل ما يبارك بعمرك ويدفع الأذية عن حياتك.

-**الدعامة الثالثة: كل ما ينفع حياتك ولا يضر بذاتك ويحترم قيمك** فهو دين؛ فالأخذ بأسباب البقاء كالتداوي والمحافظة على الصحة والإقلاع عن كل ما يضر الصحة وممارسة الرياضة، فكلها أسباب تؤدي إلى الحفاظ على الحياة، وهي مقصد الدين.

- **الدعامة الرابعة : البشر لا علم لهم بما يخبئه الله لهم من الأقدار والأعمار، فيجب عليهم أن يأخذوا بكل أسباب**

البقاء التي تساعد على امتداد الأعمار، والإنسان يدفع القدر بالقدر. ويستكمل الإسلام دوره في تحصين الإنسان وضبط سلوكه وتتجلي **عبقرية الإسلام في بناء القيم حيث تقوم على:**

– فهم الإنسان لحياته: إنه زمن يتلاشى يبدأ بولادة محددة وينتهي بميعاد مؤجل فلا تجزع ولا تخف.

– بين تلك البداية والنهاية ينبغي أن يكون للإنسان معنى وهذا لا يتم دون أن يعيش لقيم وهذا لن يصح دون قوة الإرادة والصبر والابتسامة الدائمة؟

وأقصد بقوة الإرادة، إرادة التحدي: أي أن تتحدى الضعف ونوازع الشخصية، وتتغلب على التشاؤم؟!

إن كنت شجاعاً وقادراً على التحدي فإن هذا ما يريده الدين في مواجهة أي صعوبة أو وباء إنه لا ينظر إلى المرض على أنه نهاية بل ابتلاء وارتقاء وبداية لمرحلة جديدة وتأتي تعاليم السماء لتجيب عن الأسئلة التي تدور في الخلد : من أنا ولماذا خلقت وكيف تشرح صدرك في الحياة بل كيف يكون وجهك نضراً مثل التفاحة الناضجة؟ هل ترغب أن تظل شخصاً منتجاً ومحبوباً بين الناس، حتى آخر يوم من حياتك؟ هل تريد أن يبارك الله بعمرك أن يطيل الله عمرك حتى تبلغ المئة عام، شرط أن يكون بدنك خاليا من المرض والوجع، وحالتك المادية مناسبة؟ فالضوء الذي لا يكشف عن نفسه لا يكشف عن غيره وضوء الدين لايخفت أمام عارض مهما كبر كما أن الضوء الذي يدعي علمه بأحوال الناس الداخلية وتفسيرها بشكل خاطئ ولا يعي معنى الوجود الإنساني ودور المخلوق ومن خلقه وكيف يعيش وأين مستقره سوف يحال إلى معنى الظلمة فهي وجهه الذي يقابل به الناس، ومركبه الذي يغادرهم عليه وهو ما يعين الفيروس على الفتك به الضوء الصادق ينير حيز قلب الإنسان قبل أن ينير فضاء العالم ضوء فيه خبرة موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

– حيز قلب الإنسان يفيض من فضاء العالم غير أن ضوءه يتّصل بالله قبل أي شيء، ويُسفر عن بعد كل شيء.

– حَيْز قلب الإنسان الذي يخرج منه

ضوؤه أوسع من فضاء العالم.

– الضوء الذي يفيض من قلب الإنسان عيد للعالم لا يقدر شيء أن يأتي بمثله.

– الضوء الذي يفيض من قلب الإنسان من هامشه يعود إلى الله .

– ضوء قلبك علامة لك بالألوهيّة، وضوء يدك علامةً لك بالربوبيّة، وضوء العالم علامة لك بالإنسانية.

هذا هي التعاليم السماوية وروحها السكينة والراحة والطمأنينة والنور.

ليس لهذه التعاليم فترة من الصلاحية: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة النحل: ٨٩). فالإسلام حسب النص القرآني (تبيان) أي الإجابة الصحيحة لمشاكل الإنسان المتجددة، (كل) في اللغة العربية: لفظ من ألفاظ العموم والاستغراق تفيد الشمول.

فالتبيان لكل شيء تعني:

– تعليم الإنسان ما يصحح تصوره عن الحياة.

– بيان الصحة العقلية والنفسية للإنسان.

– تزويده بدليل الهداية في الحياة والفلاح بعد الممات.

يقول الإمام الطاهر بن عاشور: «عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع : من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبين الحقوق»[٦]

ومع هذا فالإسلام ليس نصوصاً طبية ولا وصفات علاجية إنه قيم تهدي وتصورات ترشد الى الهداية والرحمة والبشرى، وبعد كل عجز إنساني يتجلى الحضور الوظيفي للدين كي يسهم في تحصين المناعة الذاتية للفرد والممانعة المجتمعية للجميع.

وما قرار العاصمة الألمانية برلين الأخير الذي بموجبه تم رفع المنع عن المسلمين والسماح لهم بترديد نشيدهم الخالد في سماء ألمانيا والذي يستفتح بالله أكبر عبر المكبرات الصوتية في المساجد إلى جوار قرع أجراس الكنائس إلا دلالة على تقدير ومكانة الدين المجتمعية زمن الكوارث.

تدرك الحكومات أن الداخل

الإنساني لا يمكن أن يقوى إلا بالحضور الديني فهناك لمسة حانية وجذوة متقدة في صدر الإنسان إنها النفخة الربانية من روح الله﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ (سورة الحجر: ٢٩)، والتي لا يمكن لتلك النفخة أن يؤثر فيها قانون مهما كان، كما لا يمكن أن يمسها أي أذى مادام المخلوق يستمد من الخالق شعلته ووهج روحه فقط عندما يحتكم الإنسان الى قيمه.

عندما يحتكم الإنسان إلى مفاهيم الدين ويغرف من معانيها ومعينها يتم الاستعادة للحياة الطبيعية رغم الهلع والولع والاستعاذة من الخوف والجبن والقهر.

فماهي وظيفة الدين وعبقريته ووصاياه في مقاومة الأمراض والأوبئة؟

لا بد أن يتصرف الإنسان المسلم وفقاً لما تمليه هذه الوصايا وفارق بين إيمان تقليدي وإيمان تصديقي؛ فجهل الإنسان بذاته وبديانته يدفعه بعض الأوقات للعجز والاستسلام، ولا يمكن للإنسان ألا يواجه النقص في حياته، لأن عالم الطبيعة شئنا أم أبينا مشوب به.المهم أن يتمكن الإنسان من الاستفادة من النقص ليصنع عوامل النجاح المتكامل. فيعرف نقاط الضعف ويتلمس النقائص ويصلح النقاط المعيبة وهذا هو دور الدين..

في أبسط تعريف للإسلام كدين بالمعنى الاصطلاحي يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته : «الدين يقال للطاعة والجزاء، وأستعير للشريعة» [٧].

وأما الفيروزآبادي : «الدين : اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل»[٨]. وقد عرف بعض علماء الإسلام الدين بأنه: وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح في الحال والفلاح في المآل[٩].

وبيَّن المرحوم د. عبد الله دراز أيضاً أنه من الممكن تلخيص الدين بقولنا : « وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات «[١٠]. فإذن جاء الدين كقانون ملزم؛ فوراء كل عمل جزاء (تربية إنسان الواجبات) حسب الأصفهاني. وجاء الدين ليشمل (كل ماحسن مما يتعبد الله به) حسب الفيروز آبادي، وفي مقدمة ما يتعبد الإنسان به ربه حسن الظن بالله سبحانه وتعالى وقد ورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قوله : (حسن الظن من حسن العبادة)[١١].

وكذلك الدين يحقق :

– منافع متحققة في العاجل الدنيوي والآجل الأخروي.

– خدمة الإنسان فالدين جاء خادمًا للإنسان لا ليكون الإنسان خادماً له.

– رعاية وحفظ حياة الناس وتحقيق الحق والخير والجمال في الأرض حسب الكاشغري ودراز.

وبنى الإسلام قناعته في الإنسان بشكل يسهم في الاستقرار العقلي والنفسي والاجتماعي ويؤسس بناء الصحة النفسية والتي تعد جزءاً أساسياً لا يتجزّأ من الصحة الجسدية.

وفي هذا الصدد ينص دستور منظمة الصحة العالمية على أنّ «الصحة هي حالة من اكتمال السلامة بدنياً وعقلياً واجتماعياً، لا مجرّد انعدام المرض أو العجز». ومن أهمّ آثار هذا التعريف أنّ شرح الصحة النفسية يتجاوز مفهوم انعدام الاضطرابات أو حالات العجز النفسية.

والصحة النفسية: حالة من العافية وسور يقي الإنسان من الأمراض الجسدية ويمكن فيها للفرد تكريس

قدراته أو قدراتها الخاصة والتكيّف مع أنواع الإجهاد العادية والعمل بتفان وفعالية والإسهام في مجتمعه أو مجتمعها.

تعد الصحة النفسية والمعافاة الداخلية من الأمور الأساسية لتوطيد قدرتنا الجماعية والفردية على:

١- التفكير الإيجابي ينظر الدين إلى الفكر السلبي نظرة رافضة فمن يقنط من روح الله ومن يحزن يفقد إيمانه وعلى المتدين أن ينظر ان يعرف دوره إنه الفرق بين الليل والنهار.. الجماد والكائن الحي.. الفرق بين الوجود والعدم. والدليل على هذا قوله تعالى ﴿**وَضَرَبَ الله مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (سورة النحل: ٧٦). لقد سمى الله السلبي في هذه الآية « **كّلاً**» والإيجابي بـ « **يأمر بالعدل**». «**كلّ**» أصعب من سلبي. لأن سلبي معناها غير فعال أما كلّ فمعناها الثقيل الكسول وقبل هذا فهو «**أبكم**» لا يتكلم ولا يرتفع له صوت.

٢- التأثر البناء.

٣- التفاعل التواصلي التكاملي مع بعضنا البعض كبشر.

٤- خلق فكرة الواجب والحق وكسب لقمة العيش والتمتع بالحياة.

وعلى هذا الأساس، يمكن عد تعزيز الصحة النفسية وحمايتها واستعادتها شاغلاً حيويا للأفراد والجماعات والمجتمعات في جميع أنحاء العالم وهي لب وظيفة الدين حيث تكمن عبقريته في تأصيل الصحة النفسية فما أصابك لم يكن ليخطؤك وأن الدواء دين والتوكل على الله دين وأن دفع القدر بقدر آخر دين وأنه لاشماتة في الأمراض لا يحارب الإسلام الخوف كونه غريزة إنسانية إيجابية إذا بقي الخوف في الحد الطبيعي بل هو علامة إيجابية يبديها الطفل الصغير عندما يبدأ بالخوف ويتوقف من الهجوم على إبريق الشاي الساخن والشخص اللاهي عندما يتوقف قبل قطع الإشارة الحمراء التي قد تسمح للسيارة بصدمه.

قد يكون مصدر الخوف عند الكائن الحي نتيجة لمؤثر خارجي (الخطر)، أو

انبعاث داخلي عن طريق هواجس مرعبة تقلقه، فحينما يأتي الخوف من خارج الجسم تحصل له الاستجابات الانفعالية الحركية، مثل: الهرب، أو المقاومة، أو الاستكانة، بينما نجد الخوف الداخلي يظل حبيس الجسد، ويصبح تأثيره أشد وقعاً في النفس الإنسانية.

ومهما يكن مصدر الخوف فإن الإنسان يحاول طلب النجاة لنفسه والبحث عن ملاذ يلوذ به ويبعد عنه ذلك الخطر، وقد عرّف علماء النفس ذلك الملاذ بأنه (**الشعور بالأمن**).

وإذا ما عرفنا أن حياة الكائن الحي هي عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المخاوف؛ عندها تكون الحاجة للأمن من أهم متطلبات الإنسان في حياته.

إذن لا ضير من أن تستشعر الخوف، وأن تقدره فيمن حولك من أهل بيتك،فكلهم يفكرون كما تفكر.

فجميل أن تمتلك الحكمة في السيطرة على خوفك، وتأمين خوف من حولك ما استطعت،و جميل أن تكون مبشرا ومؤملا؛ لكنه يرفض جعل الخوف هو المسيطر وهنا يتحول الخوف إلى سلوك مذموم.

الهوامش:

١- انظر إن شئت الرابط https://www.chla.org/blog/health-and-safety-tips/novel-coronavirus-what-you-should-know-arabic.

٢- انظر رابط الخبر https://www.alhurra.com/business/٢٠٢٠/٠٣/١٩/٨٠٠-مليار-دولار-خسائر-الاقتصاد-الأميركي-بسبب-كورونا.

٣- انظر الرابط https://www.aljazeera.net/news/politics/٢٠٢٠/٣/٢٠/في-زمن-كورونا-الحجر-المنزلي-يشرع-الباب-أمام-مشاكل-نفسية-شتى.

٤- انظر الرابط https://www.aljazeera.net/news/politics/٢٠٢٠/٣/٢٠/في-زمن-كورونا-الحجر-المنزلي-يشرع-الباب-أمام-مشاكل-نفسية-شتى.

٥- المصدر السابق.

٦- ابن عاشور: تفسير التنوير والتحرير سورة النحل.

٧- المفردات ص ١٧٥.

٨- القاموس المحيط، مادة دين، ١ / ١٥٤٦.

٩- الحلبي الكبير المسمى (غنية المتملي في شرح منية المصلي لمحمد الكاشغري) ج١ ص ٣٨.

١٠- الدين ص ٣٣.

١١- الإمام أحمد، والترمذي، وغيرهما. وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.. وقد ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، وذكر أن في إسناده سمير بن نهار، وهو نكرة.

موقف الإسلام من الأمراض والأوبئة وفق فقه الميزان

أ.د. علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد،

فقد انشغل العالم أي انشغال بظهور وباء كورنا (كوفيد١٩) في ديسمبر ٢٠١٩م، بمدينة ووهان، وسط الصين، حيث وصفته منظمة الصحة العالمية بالجائحة والوباء العالمي في: ٣/١١ /٢٠٢٠م، وتفشى في العالم بشكل غريب، وأصبح يهدد العالم في اقتصاده ونظمه الاجتماعية والصحية، وغيرها، وأصاب البورصات العالمية فنزلت قيمة بعضها في حدود ١٧٪، وقدر حجم الخسائر المتوقعة من هذه الجائحة بحوالي أحد عشر تريليون دولار أمريكي.

وأمام اختلال الموازين والأوزان والموازنات أمام هذا الوباء الخطير، فما أحوجنا إلى الموازين القسط في الإسلام العظيم، لتعيد إلى الناس رشدهم وتوازنهم، ولتعيد إلى المفتين أيضاً رشدهم في الفتوى والاجتهاد.

ولذلك سنتحدث هنا في هذا البحث عن المحاور الأساسية الآتية:

موقفي بين الماديين وبعض العاطفيين المتدينين.

فقه الميزان في المنهجية والأحكام والإرشادات العامة للعلاج.

فقه الميزان في أصل العلاج للجوائح والأمراض في الإسلام.

مبدأ السببية مبدأ إسلامي أصيل.

فقه الميزان في النظرة إلى الأوبئة

والطواعين.

موقف الإسلام من العلم والطب والمرض.

دور العلماء المسلمين في الطب ونحوه والنهضة العلمية.

مقاصد الشريعة في الطب.

منهج الإسلام في العلاج.

موقفي بين الماديين وبعض العاطفيين المتدينين:

حينما نزلت هذه الجائحة كورونا (كوفيد١٩) كان معظم الناس بين موقفين:

الموقف الأول: موقف الماديين الذين شنّوا هجوماً غير مبرر على الأديان من حيث إن الهينمة أصبحت للطب المادي في ظل كورونا، وان الله تعالى لم يحم مساجده ودور عبادته فأغلقت غصباً عن المتدينيين.

الموقف الثاني: موقف العاطفيين المتدينين من جميع الأديان، فبعض الطوائف المتشددة من اليهود رفضت الانصياع للأوامر الصحية بغلق دور العبادة، والتباعد الاجتماعي، فقالت: إن الله والمسيح المنتظر هو الذي سينيجنا من الفيروس وليس دولة الكفر والعلمانية[1] ثم أجبرتهم الشرطة. وكذلك قال بعض القسيسيين المشهورين في البداية: إذا صلينا من كل قلبنا، فكورونا لن تصيبنا.

وبعض الدعاة المسلمين قالوا في البداية: إن كورونا نعمة أغلقت أماكن الفواحش، ولكنهم نسوا أن كورونا أغلقت المساجد والجوامع أيضاً، وكذلك قال بعضهم: إن كورونا ستنتهي في شهر رمضان أو في شهر كذا، رجماً بالغيب، أو أن بعض الطوائف الإسلامية قالت: إن الأضرحة للأئمة هي مكان للاستشفاء ببركاتها!! فاكتشفت أن هذا الفيروس انتشر بينهم بصورة خطيرة، حتى مات بعض مَنْ ذهب للاستشفاء، مما اضطرت الدولة إلى إغلاق الأضرحة والمساجد معاً.

ما هو الموقف الصحيح؟

حينما نتدبر في القرآن الكريم والسيرة النبوية العطرة يظهر لنا فقه الميزان الذي يقوم على كفتيه المعتدلتين كفة العقيدة والإيمان التي تقوي معنويات المؤمنين،

وكفة رعاية سنن الله تعالى والأخذ بالأسباب، وبالتالي جمعنا بين الخيرين - كما سيأتي -.

وهذا البحث يكشف لنا بجلاء خطأ الموقفين السابقين القائمين على الجهل المركب، فالماديون لم يفهموا حقيقة الأديان الصحيحة، وبخاصة موقف الإسلام من العلم والأخذ بالأسباب، ورجوع الأمر إلى العالم المتخصص فيه -كما سيأتي شرحه -، إن دين الإسلام يأمرنا بالأخذ بالأسباب والسنن أكثر من الماديين الذي يدفعهم إلى ذلك الفعل والمصلحة فقط، في حين أن الإسلام جعل ذلك فريضة شرعية مع هذه المصلحة الفعلية. فهيمنة الطب والعلم في هذه الجائحة مرحب بها في الإسلام، بل هي من قدر الله، كما قال عمر رضي الله عنه: «نفرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله «[٢].

إن الإسلام أمرنا بالرجوع إلى أهل العلم والخبراء في كل اختصاص فقال تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [٣]، ففي جائحة كورونا فإن أهل الذكر هم الأطباء والجهات الصحية، ولذلك وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة عامة في الأمور التخصصية والعلمية المحضة، والتقنية المهنية، وهي: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٤]، وبناء على ذلك فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتداوي مطلقاً وأوجب العلاج في الحالات المعدية وفرض الحجر الصحي قبل ١٤ قرناً - كما سيأتي -.

ومن جانب آخر فإن إغلاق المساجد كان بفتوى من العلماء منذ بداية الجائحة، حيث أصدرنا فتوى مؤصلة بضرورة حماية النفس والبدن وأولويتها شرعاً على إقامة الجمعة والجماعة، والعمرة والحج، ما دام الخطر محدقاً، والضرر واقعاً. وأما هؤلاء العاطفيون فقد قمنا بالرد عليهم وبيّنا لهم بأن هذه الجائحة خاضعة لنظام السنن التي تشمل الجميع المسلمين وغيرهم، حسب إرادة الله تعالى. وبلا شك فإن لله حكماً في كل أفعاله وتصرفاته، كما أن هذه الجوائح لا يرتبط انتهاؤها بشهر فضيل، أو غير ذلك، وإنما مرتبط باكتشاف علاجه ولقاحه، كما أشار إليه

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وسيأتي لذلك مزيد من التفصيل.

فقه الميزان في المنهجية والأحكام العامة للعلاج:

تمهيد في التعريف بفقه الميزان:

المراد بفقه الميزان: بيان الميزان لكل شيء من القضايا المتعلقة بالشريعة، كما أن لكل شيء مادي ميزانه الخاص، فللكهرباء ميزانه الخاص، كما أن للماء ميزانه الخاص به، وللذهب ميزانه الخاص به، وللحديد ميزانه، وكما أنه إذا وزن شيء مما ذكر بغير ميزانه يحدث الخلل المطلق، فكذلك الأمور المعنوية، وهذا ما ذكره القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٥]، وقد ألفنا في ذلك كتاباً نتجت عنه مجموعة من الكتب[٦].

إن فقه الميزان يقوم على خمسة عناصر، أهمها:

تحديد الميزان لذلك النشاط، فبالنسبة لموضوعنا (نازلة كورونا) فميزانها ميزان الطب القائم على العلم والمقاصد والمصالح المرسلة، وأن كفتيه هما: كفة الوحي والثوابت والإيمان، وكفة الأسباب والسنن، وبالتالي الاعتماد فيها

على العقل والتجارب والتخصص كما أمر به الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[7]، ثم معرفة وزن كل شيء منه، والقيام بالموازنة للوصول إلى الحكم الموزون، والرأي الموزون، والعلاج الموزون[8].

فقه الميزان في أصل العلاج للجوائح والأمراض في الإسلام:

يقوم العلاج بصورة عامة في الإسلام على كفتي الميزان.

أ- **الكفة الأولى**: كفة العقيدة والإيمان بالله تعالى وبالقضاء والقدر، حيث يؤمن المسلم بأن الله هو الخالق البارئ القادر على كل شيء، وأنه ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾[9]، **وأنه الشافي المعافي** «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[10]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تؤدي إلى أن يكون المؤمن في أمن وأمان، ويزول عنه القلق والاضطراب، ويستقر قلبه السكينة، فلا يصاب بالجزع والهلع، كما يحدث اليوم في معظم بلاد العالم. هذا الإيمان يعالج الإنسان ويحقق له الأمن والسكينة، ويدفع عنه الأمراض النفسية الناتجة عن القلق والاضطراب والاكتئاب، وأن ذلك بلا شك يساعد العلاج أيضاً كما يقول المختصون. ويدخل في هذه الكفة التضرع إلى الله تعالى والصلوات، والأدعية المأثورة والرقية الشرعية، والصدقات ونحوها. وتضمن هذا الجانب بشارة مطلقة، وهي أن لكل مرض علاجاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عزوجلّ»[11] وقال صلى الله عليه وسلم: «تداوو فإن الله لم يضع داءاً إلاّ له دواء غير داء واحد، الهرم»[12]، وهذا يدفعنا للسعي الجاد للعلاج المبكر واللقاح الفعال.

ب- **الكفة الثانية**: الأخذ بجميع الأسباب الممكنة من الحمية والوقاية والعلاج، فالله تعالى الذي هو القادر على كل شيء وضع لكل شيء من مخلوقاته سنناً وأسباباً، وأمر عباده بأن يلتزموا بها، حيث نهى الله تعالى عن إلقاء النفس إلى التهلكة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾»[١٣]، وأمر الله تعالى بالأخذ بالأسباب، وربط بها النتائج، فقال تعالى في قوة ذي القرنين: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[١٤]، ثم كرر ذلك فقال:»ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا»، وذكر الله تعالى أن الذين يدخلون النار لم تبق لهم حيلة؛ لأنهم تقطعت بهم الأسباب، حين كانت أمامهم ــ لما كانوا في الدنيا ــ الأسباب الموصلة إلى الجنة، المانعة من دخول النار، فقال تعالى:» وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ»[١٥]. وقد تكرر في القرآن الكريم لفظ «سبب» معرفاً ونكرة خمس مرات.

مبدأ السببية مبدأ إسلامي أصيل:

وما ذكر في هذه الآيات وغيرها يدل على أن مبدأ السببية جعله الله تعالى من سننه مع خلقه، فمثلاً فإن الله قادر على أن ينزل الغيث، وينبت النبات وغيرهما، بدون سبب، ولكنه ربط كل شيء بأسبابه، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١٦]، وقال تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[١٧]، وغير ذلك.

والمسلم الحقيقي لا يختلف عن الكافر في الأخذ بالأسباب والاهتمام بها إلا في شيء واحد مهم، وهو أنه يؤمن بأن الله هو خالق الأسباب، وأنه هو الذي أمر بها، وربط بين الشيء وأسبابه، ولذلك فالأخذ بالأسباب في نظري قربة وعبادة وتنفيذ لأمر الله، وهذا يعطي القوة الدينية للأخذ بالأسباب مع القوة العقلية والدافع الفطري. لذلك لا ينبغي أن نركز على القول المشهور»إن الأخذ بالأسباب لا يتعارض مع الإيمان بالله تعالى وقدره وقدرته» بل يجب أن نقول: «إن الأخذ بالأسباب هو انقياد لله تعالى وطاعة له فيما سنّه وأمر به»، ويدل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعظم المتوكلين ــ قد أخذ بجميع الأسباب في كل تصرفاته وسيرته العطرة.

فقه الميزان الإسلامي في النظرة إلى الأوبئة والطواعين:

إن الاسلام يعتبر هذه الأوبئة من سنن الله التي تعم المسلمين وغيرهم، فتحمل في طياتها الابتلاء والتذكير والتخويف من انتشار الفساد والظلم والطغيان والفواحش في الأرض للتضرع إلى الله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦]

موقف الإسلام من العلم والطب والمرض:

أولاً: موقف الإسلام من العلم

نستطيع نحن المسلمين بكل فخر واعتزاز، وعن بينة وبرهان أن نقول: إنه لا يوجد دين، ولا نظام في العالم أولى عناية قصوى بالعلم والقراءة مثل الإسلام، فلم نجد في أي دستور (حتى في عالمنا المعاصر) تنص أول مادة منه على وجوب القراءة والعلم كما هو الحال في الإسلام حيث تنزل أول آية من السماء إلى الأرض ومن الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١٨].

والإنسان العاقل المتدبر يقف متعجباً في البداية أمام هذه الآيات التي تأمر أول ما تأمر بالقراءة المطلقة لكل شيء، للكتاب والكون وكل ما فيه خير ونفع للناس، ثم تبين أهمية العلم والتعلم، وأن قيمة الإنسان بما يعلم، ولا تأمر في أول آية بالصلاة، أو الصوم أو بقية العبادات والشعائر والعقائد.....

سبحان الله ما أعظم شأن العلم في القرآن الكريم حيث جعله شرطاً لصحة العقيدة والتوحيد، والعبادات فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾[١٩] وأمر به، وفضل من يتصف به على غيره فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢٠].

والقرآن الكريم أولى عنايته القصوى بالعلم والفكر، والنظر، والبرهان، والحكمة، والفقه، والتدبر، ونحوها، حيث ذكرها في عدد كبير من آياته فقد ذكر كلمة العلم ومشتقاته أكثر من

سبعمائة مرة بتعبيرات وأساليب مختلفة، كما ذكر مشتقات الفكر ثماني عشرة مرة، والفقه إحدى وعشرين مرة، والحكمة عشرين مرة، والبرهان سبع مرات، ومشتقات العقل تسعاً وأربعين مرة، وأما العقل نفسه فقد عبر عنه القرآن من خلال أولى الألباب التي تكرر ست عشرة مرة، وأولى النهى مرتين، ناهيك عن كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر، مثل (انظروا) و (ينظرون) ونحوها.

والسنة النبوية فصلت تفصيلاً ما بعده من تفصيل حيث خصص كل واحد من كتب الصحاح والسنن وكتاباً حافلاً أو أبواباً لموضوع العلم، فقد خصص الإمام البخاري كتاباً خاصاً من صحيحه للعلم، واشتمل كما يقول الحافظ ابن حجر في شرحه على مئة حديث وحديثين[٢١]، وهكذا، بل إن كتب السنة تذكر أحاديث كثيرة تتعلق بالعلم ولكن في كتب أخرى مثل كتاب الطب أو التداوي، إضافة إلى أن بعض الحفاظ والمحدثين أفردوا كتاباً خاصاً بالعلم مثل الحافظ الفقيه ابن عبد البر في كتابه: جامع بيان العلم وفضله[٢٢]، والحافظ الخطيب البغدادي في كتابه

(الفقيه والمتفقه).

فقد تناولت الآيات الكريمة والأحاديث الثابتة منزلة العلم والعلماء، وأهمية العلم التجريبي، والعلم النافع، من خلال تكوين العقلية العلمية القائمة على البحث عن الدليل والبرهان، ومحاربة الأمية والتخلف، والحملة الشديدة على الأوهام والخرافات والتقاليد البالية، وتعلم اللغات، واستخدام أسلوب الإحصاء، والتخطيط وإقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية، والنزول عند رأي الخبراء وأهل الذكر والاختصاص، والاستفادة من كل قديم صالح وكل جديد نافع، كما تناولت هذه الآيات القرآنية، والأحاديث الثابتة أخلاقيات العالم من الشعور بالمسؤولية والأمانة العلمية والتواضع، والعزة، والعمل بمقتضى العلم، وعدم كتمان العلم وكذلك آداب العالم والمتعلم، وواجبات الدولة والمجتمع نحو العلم والعلماء[٢٣] وضرورة التقدم العلمي الشامل للجوانب الفكرية والثقافية والحضارية والتقنية، وأن قوة العلم تقع في أعلى مراتب القوى التي أمر الله تعالى بإعدادها حتى تبقى الأمة قوية البنيان قادرة على أداء الشهادة والأمانة في هذه الأرض المستخلفة عليها.

ونتيجة لهذه الأهمية قفزت العلوم في ظل الإسلام قفزة عالية وتحققت الحضارة الإسلامية في فترة قصيرة شهد بتطورها في ذلك العصر وتقدمها كل المنصفين، بل برهن على ذلك واقع المسلمين في تلك العصور الذهبية، وقد كتب عن ذلك الكثيرون منهم المستشرق آدم متز في كتابه: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام[٢٤] فذكر أنه في القرن الثالث الهجري ظهرت مجموعة أخرى من الفنون والعلوم الدنيوية، والعناية الكبرى بالكتب والمكتبات، حتى استدعى السلطان نوح بن منصور الساماني: الصاحب بن عباد (ت٣٨٤هـ) ليوليه وزارته، فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل كتبه التي لا تحمله أربعمائة جمل، كان فهرس كتبه في عشرة مجلدات[٢٥].

دور العلماء المسلمين في الطب ونحوه والنهضة العلمية:

وقد نبغ المسلمون في مختلف العلوم وأبدعوا فيها، فكونوا حضارة رائعة رائدة في عصورها، ويقول الدكتور عبدالوهاب عزام: (لا أخال التأريخ يعرف أمة من الأمم الغابرة سارت سيرة المسلمين في طلب العلم والاخلاص في تحصيله وجعله عبادة لله تعالى يتعبد بها العلماء والمتعلمون، واتخاذ المساجد للصلاة والدرس معاً، فكما جعل الإسلام الأرض كلها للمسلم مسجداً وطهوراً، جعل الأرض كلها دار علم وتعليم، فالمسلم مأمور أن ينظر في السموات والأرض وآثار الأمم وسيرها وأن يطلب العلم حيث كان، ويلتقط الحكمة أنى وجدها فهو يتعلم في الحضر والسفر وفي المسجد والدار، كانت مساجد المسلمين منذ أنشئت دار تعليم منذ جلس المعلم الأعظم صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه في المسجد إلى يومنا هذا)[٢٦] ولذلك اعترف معظم المستشرقين بأن جامعة القرويين بفاس هي أقدم جامعة في العالم، وقد أثبت التأريخ أنه تخرج منها المئات من غير المسلمين، وعلى رأسهم الراهب **(جربرت)** الذي صار فيما بعد البابا سلفستر الثاني الذي أدخل الأعداد العربية إلى أوربا، وهو الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية العلوم التي تلقاها في الجامعات الأندلسية، وأدخل تعديلات جوهرية في القانون الروماني[٢٧]، وحينما ننظر في هذه التعديلات نراها تتماشى مع الفقه الإسلامي[٢٨].

ثانياً: موقف الإسلام من الطب والمرض:

إن الإنسان في نظر الإسلام أعظم وأكرم وأشرف مخلوق على وجه الأرض، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأكرمه، ومنحه أجمل صورة وأحسن تقويم، فقال تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[٢٩]، وهو عجيب في تكونيه الجسماني، وغريب في تكوينه الروحاني، وفيه من الأسرار العظيمة ما لا تعدّ ولا تحصى حتى قال الشاعر:

وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

ونجد في القرآن الكريم مجموعة كثيرة من الآيات الكريمة تتحدث عن

الإنسان والجوانب الخاصة به من حيث النشأة والتكوين، ومن حيث المسيرة الطويلة التي تبدأ بالحياة بعد تلقيح البويضة «مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ»[30] إلى الموت، والحياة البرزخية، ثم إلى البعث والحشر والحساب، فالجنة أو النار. فالآيات المتعلقة بعلم الأجنة ومراحل خلق الإنسان لا شك أنها معجزة، لأن فيها أوصافاً دقيقة لم تكشف إلاّ في عصر الحديث من خلال التقنيات العلمية الدقيقة المعاصرة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[31] حيث ذكرت مراحل وأدوار وتطور الجنين، من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم العظام، ثم طور إكساء العظام لحماً، ثم طور الحركة الذاتية للجنين، ثم تطوره بأمر الله إلى الخلق المتكامل إضافة إلى الدخول في تفاصيل النطفة الأمشاج التي تتكون من الحيوان المنوي، والبويضة وغير ذلك.

وإذا قمنا بنظرة فاحصة نجد أن الآيات الصريحة في هذا المجال أو التي يمكن استنباط ما يتعلق بالطب منها يبلغ

عددها في الطب النفسي ١٣٠ آية، وفي وظائف الأعضاء ٥٩ آية، وفي علم الأجنة ٣٦ آية، وفي ما يخص النساء ٢١ آية، وفي العيون ١٠ آيات، وفي طب المجتمع ٤٣ آية، وفي التشريح ١٩ آية، وفي الأنف والأذن والحنجرة ١٥ آية، وفي علم الوراثة ١٥ آية، وفي الطب الغذائي ١٨ آية، وفي العناية بالمريض ١٠ آيات، وفي الجلدية ٩ آيات، وفي الطب العلاجي ٨ آيات، وفي الجراحة ٨ آيات، وفي الشيخوخة ٦ آيات، والأطفال ٥ آيات، وفي الطب الشرعي ٤ آيات، فالمجموع النهائي لعدد الآيات التي تناولت هذه القضايا بصورة مفصلة، أو إجمالية، وبصورة واضحة، أو أنها يفهم منها هي ٤١٦ آية مع المكرر[٣٢].

ومن الضروري التنبيه عليه أن القرآن الكريم مع أنه ليس كتاب طب، وإنما هو كتاب هداية، ولكنه تناول هذه الموضوعات من خلال الاستدلال على عظمة الله تعالى وعلمه وقدرته، أو من خلال ذكر القصص أو من خلال بيان خصائص الإنسان، أو نحو ذلك، كما أن هذه الآيات ليست جميعها على سنن واحد من حيث الدلالة على الموضوعات الطبية، وإنما غالبها يؤخذ منها بالاستنباط في الأمور الطبية.

مقصد حفظ الإنسان نفسه، وعقله، وبدنه من أعظم مقاصد الشريعة:

ومن أعظم عناية الله تعالى بالإنسان أنه جعل الحفاظ على الإنسان نفسه، وعقله، وتنميتهما مقصدين عظيمين من مقاصد شريعته، بل قدمهما على أداء الشعائر التعبدية في حالة الإكراه، أو العجز، أو المشقة، لذلك فإن شرف الطب يعود إلى شرف موضوعه، وهو بدن الإنسان، وعقله، ونفسه، وعليه فإنه يأخذ ذلك الشرف والمكانة.

مقاصد الشريعة في الطب:

يمكن تلخيص مقاصد الشريعة في الطب فيما يأتي:

أولاً: الحفاظ على النفس والبدن والأعضاء وتنميتها:

إن أهم مقاصد الشريعة الإسلامية العامة الحفاظ على النفس، ولذلك فإن

الطب الوقائي والعلاجي يعد من أهم الوسائل لتحقيق ذلك المقصد، حاله في ذلك حال الغذاء والشراب، حيث إنهما من الواجبات بالجنس والمآل. ولذلك فإن مقاصد الشريعة من الطب الحفاظ على البدن: أعضائه وأجزائه وأجهزته وصحته، وإبعاده عن المهلكات والمضرات، بل تنميتها، فلا يجوز للإنسان التصرف في بدنه، ولا الاعتداء عليه ولا على روحه وعقله إلاّ بإذن الله الخالق الحكيم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه.

ثانياً: دفع الأضرار، والخبائث:

وكذلك يعتبر من أهم مقاصد الشريعة دفع الأضرار والخبائث، ومنع الأسباب المؤدية إلى المرض، وسد الوسائل الموصلة إلى الضعف، ولذلك أحل له الطيبات وأمر بها، وحرّم عليه الخبائث ونهاه عنها، فقال تعالى في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في التوراة والانجيل: ﴿**ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِـٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَـٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾[٣٣].

وقد ورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تحريم كل ما هو ضرر وأذى ومفسدة، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا ضرر ولا ضرار)[٣٤] بل جعل الإسلام ميزان الحرام على أساس الضرر والمفسدة والاثم فقال تعالى في بيان أسباب حرمة الخمر والميسر: ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾[٣٥].

وقد أصبح الحديث السابق مبدءاً عظيماً من مبادئ الإسلام، وقاعدة كلية عامة من قواعد الشريعة، يقول السيوطي في شرح القاعدة العامة: (الضرر يزال): أصلها: (قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار... اعلم أن هذه القاعدة ينبني عليها كثير من أبواب الفقه... وتتعلق بها قواعد، وهي: الضرورات تبيح المحظورات... وأن الضرورات

تقدر بقدرها، وأن الضرر لا يزال بالضرر، والحاجة تنزل منزلة الضرورة، عامة كانت، أو خاصة»[٣٦].

ثالثاً: الحفاظ على قدرته لتحقيق رسالة الاستخلاف:

وكذلك يعد من مقاصد الشريعة التداوي والعلاج للحفاظ على استمرارية الصحة والعافية والقدرة على العمل والإنتاج وأداء الشعائر وتعمير الأرض. ولتحقيق هذا المقصد الشرعي أمر الله تعالى بالحماية والوقاية والتداوي، فقد روى أحمد والحاكم وأبو داود، وابن ماجه بسندهم عن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله: أنتداوى؟ فقال: (نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عزّوجل لم يضع داءً إلاّ وضع له شفاء غير داء واحد) قالوا: ما هو؟ قال: (الهرم)[٣٧].

كما أن الإسلام يدوعو إلى أن يكون المؤمن قوياً في بدنه، وجسده، وفي عقيدته وروحه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[٣٨].

اجتثاث الخرافات في العلاج:

كما قضى الإسلام على كل الخرافات المتعلقة بالأمراض والشفاء من علاقاتها بالجن والشياطين والأرواح الشريرة، فأسند المرض والشفاء كله إلى الله تعالى، فكما جعل للمرض أسبابه، كذلك جعل للشفاء أسبابه فقال تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا**﴾[٣٩] وقال تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿**وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[٤٠] فكما أن الجوع لا يزال إلاّ بسبب الأكل، والشبع لا يتحقق إلاّ بسببه، فكذلك المرض والشفاء، فالكل بيد الله تعالى لكنه تعالى جرت سننه بأن جعل لكل شيء سبباً، ولذلك حرّم الإسلام الطيرة والتشاؤم والتمائم التي تعلق في الأعناق، او السواعد، والعرافة والكهانة، والذهاب إلى العرافين والدجالين[٤١].

وفي مقابل ذلك أمر بالتداوي حسب ما يذكره أهل الطب، واعتبار ذلك من قدر الله تعالى[٤٢].

رابعاً: حكم الحمية والعلاج:

تدل الأدلة الشرعية على أن الحمية والعلاج واجب شرعي وحتمي إذا كان المرض من الأمراض المعدية، ومنها قوة تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٤٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم:» تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُوَ قَالَ الْهَرَمُ»[٤٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم:» إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا، وَلَا تَتَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»[٤٦]. وقد ردّ العلماء على من يقول بأن التداوي يخالف التوكل بأن ذلك من المغالطة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم تداوى وهو سيد المتوكلين، وأمر به في أكثر من حديث، ثم إن التداوي مثل استعمال الماء للعطشان، الأكل لدفع الجوع، فلا فرق بين هذه الدرجات، فإن جميع ذلك أسباب رتبها خالق الأسباب سبحانه وتعالى، وأجرى بها سنّته[٤٧]، وكذلك يجب العلاج إذا أكد الأطباء على أنه إذا لم يعالج يموت بقدر الله، أو يضعف فلا يقدر على تنفيذ تكاليفه، فالحفاظ على الروح والنفس من الواجبات والمقاصد العامة، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وفيما سوى هاتين الحالتين فالصحيح أن العلاج والحمية والوقاية مطلوب شرعاً، لأنها وسائل الحفاظ على مقصد النفس.

منهج الإسلام في العلاج

يقوم منهج الإسلام في العلاج والتداوي على ما يأتي:

أولاً: الجانب العقدي:

والمقصود به أن المسلم يؤمن بأن الله تعالى هو القادر الشافي، وأن كل شيء بيده على سبيل الحقيقة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٤٨]، ولكن الله تعالى ربط الأشياء بأسبابها، وجعل لكل شيء سبباً، وهكذا الأمر في المرض، حيث ربطه بأسباب شفائه من الحمية والعلاج. فالمسلم لا يجد أي تعارض أو ازدواجية في ذلك، فإيمانه هذا من قدر

الله تعالى، وربطه الأشياء بأسبابها هو أيضاً من قدر الله تعالى، وقد عبر عن ذلك الفاروق رضي الله عنه عندما امتنع من دخول الشام لوجود طاعون فيه، فقال:» نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله»[٤٩]. ولكن هذا الجانب العقدي يمنح صاحبه الأمن الداخلي والطمأنينة والرضا بالنتائج، ويبعده عن الهلع والقلق والاضطراب والرهف، كما عبر عن ذلك الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم،في قوله:»عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٥٠]، وقال تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[٥١].

ثانياً: طب الوقاية والحماية، وأنواعها:

فقد أولى الإسلام عناية قصوى بالطب الوقائي والحمية؛ سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من خلال أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٥٢]، فهذه الآية وإن نزلت في ضرورة الإنفاق والبذل والتضحية في سبيل الإسلام[٥٣] حتى لا يقعوا في تهلكة الآخرة، ولكنها عامة للتهلكة الدنيوية أيضاً؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا ما صرح به كبار علماء التفسير والحديث، قال الشوكاني:» والحق أن الاعتبار بعموم

اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير الطبري[٥٤].

ويقول الحافظ ابن حجر:» وأما قصرها على موضوع ترك النفقة في سبيل الله، ففيه نظر؛ لأن العبرة بعموم اللفظ»[٥٥]، ثم ذكر أن الصحابي الجليل البراء بن عازب اتعبر من يذنب الذنب، ثم ييأس من رحمة الله: أنه ألقى بيده إلى التهلكة»، أخرجه ابن جرير، وابن المنذر بإسناد صحيح[٥٦].

ونذكر هنا -بإيجاز شديد - أنواعاً من الوقاية المباشرة والمعنوية:

١ - فمن الوقاية المباشرة ما يأتي[٥٧]:

الحجر الصحي الذي سبق فيه الإسلام حقاً، حيث وردت فيه أحاديث صحيحة، ومن أصحها:

أ- قول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ﴾**[٥٨].

ب- قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[٥٩]، وفي رواية أخرى بلفظ» بيته»[٦٠]، وهذا أخص.

ج- قول النبي صلى الله عليه وسلم :» يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»[٦١].

د- قول النبي صلى الله عليه وسلم:»فِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنْ الْأَسَدِ»[٦٢].

١-٢ الحمية من حيث التوسط والاعتدال في الأكل والشرب ونحوهما، فقال تعالى: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**[٦٣]، قال المفسرون: إن حفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين، وقال صلى الله عليه وسلم تأكيداً ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[٦٤].

١-٣ النظافة الشاملة للجسد، والثياب والمكان والبيت، وكل ما يتعلق بالإنسان فقال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**[٦٥] وقال صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان»[٦٦]، وقال صلى الله عليه وسلم:» إن الله طيب لا

يقبل إلا طيباً «[٦٧]، وهذه النظافة والطهارة في الإسلام تشمل داخل الإنسان وخارجه، وبطانه وظاهره، فقال سبحانه في سورة المدثر ــ وهي من أوائل ما نزلت ــ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٦٨] هذا للطهارة الظاهرية «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ «[٦٩] وهذه للطهارة الداخلية، فقد تكرر لفظ « غسل « ومشتقاته في كتب السنة أكثر من ٤٧٢٩ مرة، نذكر منها ما يأتي:

أ- وجوب الوضوء في اليوم خمس مرات للفرائض ما عدا النوافل، وهو يشمل غسل جميع الأعضاء الظاهرة من الوجه واليدين إلى المرفقين والرجلين إلى الكعبين، والغسل للجنابة والحيض والنفاس ونحوهما.

ب- غسل الفم من خلال المضمضة، والمبالغة في غسل الأنف من خلال الاستنشاق، فقال صلى الله عليه وسلم:» أسبغ الوضوء، وخلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً» [٧٠].

ت- غسل اليدين في أحوال كثيرة، قبل النوم، حيث قال صلى الله عليه وسلم:» من نام وفي يده غمر ــ أي دسومة ــ ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه»[٧١]، وكان صلى الله عليه وسلم يبدأ بغسل يديه ثلاثاً قبل الغسل كالوضوء[٧٢]، وأنه صلى الله عليه وسلم يغسل يديه، ثم يأكل أو يشرب»[٧٣]، وفي بعض الأحيان كان صلى الله عليه وسلم:» يغسل يديه سبع مرات»[٧٤]، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يأمر بغسل اليد بعد النوم»[٧٥]. وهناك حالات كثيرة مما يدل على العناية القصوى بغسل اليدين ثلاث مرات، أو أكثر في بعض الأحوال، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم عاش في بيئة قليلة المياه.

ث- غسل الفم، والتركيز على نظافته بجميع وسائل التنظيف، ومن خلال استحباب السواك، وهو شجر له رائحة طيبة، فقال صلى الله عليه وسلم:»عليكم بالسواك، مطهرة للفم مرضاة للرب» [٧٦]. كذلك غسله بتركيز من خلال المضمضة، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «إن من الفطرة المضمضة والاستنشاق»[٧٧].

ج- سنن الفطرة العشر في نظر الإسلام مرتبطة بالنظافة، حيث قال صلى الله عليه وسلم:» عشر من الفطرة؛ قص

الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم ــ أي تنظيف ما بين الأصابع والمواضع التي تتجمع فيها الأوساخ ــ ونتف الإبط ــ أي إزالته ــ، وحلق العانة، وانتفاض الماء ـ أي استخدام الماء لإزالة النجاسة عند قضاء الحاجة ــ قال زكريا، قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة»[٧٨].

ح- النهي عن شرب الماء من فم السقاء، أو القربة[٧٩]، حيث يدل بوضوح على أن الحكمة منه منع العدوى، وعدم إفساد المتبقي من الماء وغير ذلك.

خ- تغطية الأواني حماية من الوباء والمكروبات، حيث يقول صلى الله عليه وسلم :» غطوا الإناء، وأوكوا السقاء ـ أي شدوا أفواه القربة ونحوهاــ فإن في السنة ليلة ينزل فيها باء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء»[٨٠] والمراد بالوباء: مرض عام يفضي إلى الموت غالباً.

د- عدم معاشرة الزوجة الحائض، فقال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[٨١].

ذ- الحفاظ على نظافة الأماكن العامة وعدم تنجيسها، مثل الطرق العامة، والشواطئ، والحدائق العامة ونحوها، حيث قال صلى الله عليه وسلم:» اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[٨٢].

ر- تحريم الله تعالى كل ما هو خبيث ومضر وفاسد، فقال تعالى: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾[٨٣].

ز-تحريم المخدرات والمسكرات والمفترات.

٢- الوقاية والحمية في الجناب المعنوي:

فلهذا القسم أنواع كثيرة، من أهمها جميع الأدعية المأثورة من الكتاب والسنة، وبخاصة المتعلقة بطلب الشفاء والحماية والاستعاذة بالله تعالى من شرور الخلق والقلق، والنفاثات، والحاسدين، مثل قراءة آية الكرسي[٨٤]، والإخلاص، والمعوذتين ثلاث مرات صباحاً ومساءً[٨٥]، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة[٨٦]، والتهليل مائة مرة، والتسبيح مائة مرة[٨٧]، وهناك أدعية أخرى كثيرة.

ثالثاً: العلاج بجميع الوسائل المتاحة، والدعوة نحو الأفضل والأحسن والأجود:

حيث أمرنا الله باختيار الأحسن المتجدد في كل شيء، بل إن امتحان المسلمين مع غيرهم في الأحسن المتجدد، قال تعالى: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»[٨٨] أي أن الله تعالى يمتحنكم فيما بينكم(أنتم المسلمين) وبينكم وبين غيركم من جميع الأمم بكل شيء أحسن للدنيا والآخرة. ومن المعلوم أن لفظ (أحسن عملاً) نكرة لا يتحدد معناها بزمن، بل تدل على أن أحسن اليوم يجب أن يكون أحسن م أمس، وهكذا مما يدل على استمرارية الأحسنية، وتجددها غير المتناهي.

رابعاً: الأمل العريض الطويل الذي لا يعرف اليأس أبداً:

فهذه تربية الإسلام، قال تعالى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا*إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[٨٩]، وقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم أمته على التفاؤل بالخير، وبالتبشير، فقال صلى الله عليه وسلم:»بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[٩٠]، وقال صلى الله عليه وسلم: «وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ الصَّالِحُ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ»[٩١].

وفي مجال الأمل في الشفاء وردت عدة أحاديث منها؛ ما رواه مسلم وأحمد بسندهما عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»[٩٢]. ومنها الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنزل الله داءً إلاّ أنزل له شفاءً»[٩٣]. حيث يدل هذان الحديثان وغيرهما على عدة أمور من أهمها ما يأتي:

أ - إثبات الأسباب والمسببات، فكما جعل الله تعالى أكل الطعام مُذْهباً للجوع، والشراب مُذْهباً لعطش، كذلك جعل الله تعالى الأدوية أسباباً لشفاء الأمراض.

ب ـ أن الشفاء إنما يتحقق إذا أصاب المرض داؤوه الخاص به، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أهمية التخصص الدقيق في علم الطب، والفهم العميق لهذا الترابط، حيث قد يكون الدواء فعالاً ولكنه ليس لهذا المرض الذي عولج به، وإنما لمرض آخر، فلكل مرض علاجه الخاص ودواؤه الخاص به.

ج - أن الأخذ بالعلاج والتداوي لا ينافي التوكل أبداً، يقول الإمام ابن القيم: (وفي الأحديث الصحيحة الأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل، كما انه لا ينافيه دفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد، إلاّ بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وان تعطيلها يقدح في نفس التوكل، فإن تركها عجزاً ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بدّ من هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلاّ كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد توكلاً، ولا تكوله عجزاً[٩٤].

د ـ الأمل العظيم العريض بالشفاء، وباستكشاف الأدوية لجميع الأمراض، حيث يعطي قوله صلى الله عليه وسلم (لكل داء دواء) أملاً كبيراً للمريض حيث يتعلق قلبه بروح الرجاء وزالت عنه حرارة البأس، للطبيب، وللعلماء والمختبرات العلمية وفي ذلك خير كثير للجميع.

٢ ـ إن فيما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم أو فعله حول الطب والعلاج يدل بوضوح على أهمية الطب، وأنه ـ كما سبق ـ

والخلاصة أن هذه الشريعة هي شريعة الرحمة للعالمين، والرحمة الشاملة للأبدان والقلوب والنفوس والعواطف، وشفاء لها جميعها، ولأمراض المجتمع والأمم أجمعين، وانها مرشدة إلى حفظ صحة الأبدان وصلاحها ودفع الآفات عنها بطرق كلية قد وكل تفصيلها إلى العقل الصحيح، والخبرة.

خلاصة المنهج الإسلامي في العلاج:

نستطيع أن نلخص المنهج الإسلامي في الطب والعلاج في النقاط الآتية:

أولاً: أن الإيمان بالله تعالى وبالقضاء والقدر، وإرجاع الأمر كله إلى الله تعالى لا يتعارض مع الأخذ بجميع الأسباب المتاحة لدفع المرض، والأخذ بالحيطة والوقاية قبل الوقوع والإصابة، ثم الأخذ بجميع الأسباب المتاحة للعلاج والشفاء، لأن كل ذلك مطلوب بأمر الله تعالى.

ثانياً: يغرس الإسلام في نفوس أتباعه الرضا والقناعة، والصبر والمصابرة على ما أصابه، والشكر والحمد والثناء لله تعالى إذا درأ عنه المرض، ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ المؤمن: إن أصابته سراء فشكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له»[٩٥]. فهو في حالة العافية يشكر الله، ويساعد الآخرين، وفي حالة الصبر له أجر على المرض ونحوه فهو من الصابرين حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمَوَالِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٩٦]. وبين الرسول الحبيب أن «الصبر ضياء»[٩٧] وعلمهم كيفية الصبر من خلال التصبر فقال: «من يتصبّر يصبّره الله»[٩٨] ومن خلال الإرجاع إلى الله تعالى، والأخذ ببعض الوسائل مثل الإكثار من تلاوة بعض الآيات والمأثورات والأدعية، ثم من خلال بيان الأجر العظيم المعدّ للصابرين، حتى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الذي يموت بالطاعون (الوباء) صابراً محتسباً له أجر الشهيد[٩٩] وكذلك تثبت

أجر الشهيد لمن صبر وترك الخروج لأجل عدم انتشار المرض. وبذلك يكون المؤمن قوي الإيمان قوي البنيان، بعيداً عن الأمراض النفسية والانهيار، وبعيداً عن اليأس والقنوط والاحباط وبالتالي التفكير في الانتحار.

ثالثاً: يأمره الإسلام بالوقاية والحماية، سيأتي تفصيله في الطب النبوي والوقائي.

رابعاً: يأمر الإسلام بعد ذلك المسلم بالتداوي، فقد روى أحمد وأصحاب السنن وغيرهم أن الصحابة قالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: (تداووا فإن الله لم يضع داءً إلاّ وضع له دواءً غير الهرم)[١٠٠] وفي حديث آخر قال الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: «نعم، يا عباد الله تداووا»[١٠١].

خامساً: يوسع الإسلام دائرة التداوي بالأدوية والعلاج الطبي والعمليات ونحوها، وهذا هو الأصل، ومع ذلك يرشده إلى الاستشفاء بالقرآن الكريم والأدعية المأثورة حيث يقوي قلبه وحينئذٍ يشفى بإذن الله.

سادساً: يبين الإسلام للناس جميعاً بأن لكل داء دواء ولكل مرض شفاء علمه من علمه، وجهله من جهله، يختلف ذلك حسب العصور والأزمان وتطور الأدوية والعلاج والوسائل الطبية، حيث يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «إن الله لم ينزل داءً، ـ أو لم يخلق داءً ـ إلاّ أنزل ـ أو خلق ـ له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلاّ السام، قالوا: يا رسول الله، وما السام؟ قال: الموت»[١٠٢]. وهذا الحديث الصحيح يعطي أملاً ـ ما بعده أمل ـ لكل مريض حيث قضى بأنه لكل داء دواء، ولكل مرض شفاء، وبذلك لا يفقد الأمل مهما كان مرضه خطيراً على عكس ما هو الحال اليوم حيث تصنف بعض الأمراض على أنه لا شفاء لها، كما أنه يدفع العلماء، بل يوجب عليهم السعي للوصول إلى علاج أي مرض مهما كان.

وأخيراً فمنهج الإسلام منهج قائم على الزوجية (أي الطب الروحي والنفسي والطب المادي) وليس على الأحادية أي الاعتماد على الجانب المادي فقط، أو الجانب الروحي فقط، وهكذا الإسلام في كل شيء حيث يجمع بين الدين والدنيا، وبين المادة والروح، وفي ذلك وغيره جمع للخيرين.

الهوامش

١- تقرير الجزيرة، تحديث ١ مايو ٢٠٢٠م.
٢- رواه البخاري (٥٧٢٩) ومسلم (٢٢١٩).
٣- سورة النحل / الآية ٤٣.
٤- الحديث صحيح رواه مسلم، الحديث رقم (٢٣٦٣).
٥- سورة الحديد / الآية ٢٥.
٦- يراجع: كتابنا : فقه الميزان في طبعتيه، ط. دار النداء في استنبول ٢٠١٨، وطبعة مركز القره داغي بألمانيا، عام ٢٠١٩م، ثم كتاب البيئة أمنا، وكتاب الإصلاح على خطى الأنبياء، ط، مركز القره داغي ٢٠١٩م.
٧- سورة النحل / الآية ٤٣.
٨- لمزيد من التفصيل يراجع: كتابنا : فقه الميزان في طبعتيه، ط. دار النداء في استنبول ٢٠١٨، وطبعة مركز القره داغي بألمانيا، عام ٢٠١٩م.
٩- سورة التوبة (٥١).
١٠- سورة الأنعام (١٧).
١١- سورة البقرة (١٩٥).
١٢- سورة البقرة (١٩٥).
١٣- سورة البقرة (١٩٥).
١٤- سورة الكهف (٨٤.٨٥).
١٥- سورة البقرة (١٦٦).
١٦- سورة الأعراف (٥٧).
١٧- سورة الحجر (٢٢).
١٨- سورة العلق / الآية ١.٥.
١٩- سورة محمد/ الآية ١٩.
٢٠- سورة الزمر/ الآية ٩ .
٢١- فتح الباري على شرح صحيح البخاري ط. السلفية بالقاهرة (٢٣١/١).
٢٢- د. يوسف القرضاوي : الرسول والعلم ط. الرسالة /بيروت ص ٤.
٢٣- د. يوسف القرضاوي : المرجع السابق، ود. علي القره داغي : مقدمته عن آداب العلم والعلماء وآداب المتعلم والعالم، لكتاب : أيها الود للغزالي، ط.دار الاعتصام، وط. دار البشائر الإسلامية بيروت.
٢٤- ترجمة د. محمد عبدالهادي أوريده ط. دار الكتاب العربي ١٣٨٧ هـ
٢٥- المرجع السابق (٣١٩/١.٣٢٦).
٢٦- المرجع السابق.
٢٧- د. عبدالرزاق نوفل : المسلمون والعلم الحديث ط. مؤسسة المطبوعات الحديثة بالقاهرة ١٩٦٠ ص ٣٤.٣٦
٢٨- يراجع لتأثير الفقه الإسلامي في القوانين الأوربية الحديثة، د. علي القره داغي : مبدأ الرضا في العقود دراسة مقارنة ط.دار البشائر الإسلامية بيروت ١٩٨٠ الباب التمهيدي.
٢٩- سورة التين / الآية ٤.
٣٠- سورة الإنسان / الآية ٢.
٣١- سورة المؤمنون / الآية ١٢ – ١٤.
٣٢- انظر إلى هذه الإحصائيات في : د. محمد جميل الحبال، ود. وميض العمري : الموضوعات الطبية في القرآن الكريم ط. مكتبة الأرقم بالعراق ١٩٩٥م
٣٣- سورة الأعراف / الآية ١٥٧.
٣٤- الحديث رواه مالك في الموطأ والشافعي في مسنده (٣٢٤/١) وأحمد (٣١٣/١، ٣٢٦/٥) والحاكم في المستدرك (٦٦/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في السنن (٦٩/٦) والدارقطني (٧٧/٢) ويراجع : مجمع الزوائد (٢٠٤/٤) ومصابيح الزجاجة للكتاني (٤٨/٣).

٣٥- سورة البقرة / الآية ٢١٩.
٣٦- الأشباه والنظائر للسيوطي ط. دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠٧هـ ص ١٧٣١٨١ بتصرف.
٣٧- مسند أحمد (٢٧٨/٤) والحديث رقم ١٨٣٦٦ والترمذي وصححه، الحديث ٢٠٣٩، والمستدرك للحاكم (٢٠٨/١، ٤٢٢/٤، ٤٤٢، ٤٥٦) وصححه، وابن حبان وجوده في صحيحه كتاب الطب (٤٢٦/١٣) والسنن الكبرى للبيهقي (٢/٤، ٣٦٨، ٣٤٣/٩) وسنن أبي داود الحديث رقم ٣٨٥٥ وابن ماجه الحديث رقم ٣٤٣٦ ويراجع: الأحاديث المختارة بتحقيق عبدالملك دهيش / مكة المكرمة ١٤١٠هـ (١٦٩/٤) والاستذكار (٤١٤/٨) والمحلى (١٧٦/٤) وتهذيب الآثار (٤٩٩/١) ومصنف ابن أبي شيبة (٣١/٥).
٣٨- رواه مسلم (٢٦٦٤) وأحمد (٨٧٧٧) وابن ماجه (٤١٦٨).
٣٩- سورة التوبة / الآية ٥١.
٤٠- سورة الشعراء / الآية ٧٩.
٤١- يراجع: الحلال والحرام لفضيلة الشيخ القرضاوي
٤٢- يراجع: موارد الضمأن (٣٣٩/١).
٤٣- سورة البقرة (١٩٥).
٤٤- سورة النساء (٢٩).
٤٥- رواه أبو داود في سننه مع عون المعبود (١٠ / ٣٣٤) الحديث رقم ٣٨٥٥، والترمذي مع تحفة الأحوذي (٦ / ١٩٠) الحديث رقم ٢٠٣٨، وقال حسن صحيح، وابن ماجه ٠٣٤٣٦) وأحمد (٤ / ١٨٤)، والنسائي في الكبرى(٧٥٥٣) وابن حبان في صحيحه(٦٠٦١).
٤٦- رواه أبو دود (٣٨٧٤،) وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢ / ٣٣٦) إسناده حسن.
٤٧- إحياء علوم الدين (٤ / ٢٨٣).
٤٨- سورة الشعراء، الآية رقم ٨٠.
٤٩- رواه البخاري في صحيحه برقم (٢١٦٤) ومسلم في صحيحه برقم (٢٢١٩).
٥٠- رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٩٩).
٥١- سورة الحديث، الآية رقم ٢٣.
٥٢- سورة البقرة، الآية رقم ١٩٥.
٥٣- يراجع: صحيح البخاري الحديث (٤٥١٦) وسنن الترمذي الحديث (٢٩٧٢).
٥٤- فتح القدير (١ / ١٩٣).
٥٥- فتح الباري (٨ / ١٨٥).
٥٦- المصدر السابق (٨ / ٣٣).
٥٧- وهذا ما اعترف به بعض الأطباء الغربيين.
٥٨- رواه البخاري برقم (٥٧٢٩) ورقم (٣٤٧٤).
٥٩- صحيح البخاري رقم (٣٤٧٣، ٥٧٢٩، ٥٧٣٣٠، ٦٩٧٣) ومسلم برقم (٢٢١٨،٢٢١٩).
٦٠- المسند برقم (٢٦١٣٩) بإسناد صحيح.
٦١- رواه البخاري برقم (٥٤٣٧) ومسلم برقم (٢٢٢١).
٦٢- رواه أحمد برقم (٩٤٢٩).
٦٣- سورة الأعراف، الآية ٣١.
٦٤- رواه الترمذي الحديث (٢٣٨٠) وقال حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى (٦٧٦٩) وابن ماجه (٣٣٤٩) وأحمد (١٧١٨٦) وابن حبان في صحيحه (٦٧٤).
٦٥- سورة البقرة، الآية ٢٢٢.
٦٦- رواه مسلم برقم (٢٢٣).
٦٧- رواه مسلم برقم (١٠١٥).
٦٨- سورة المدثر(٤).
٦٩- سورة المدثر(٥).
٧٠- رواه أبو داود (١٤٢) وأحمد (١٦٣٨٤) والترمذي (٧٨٨) والنسائي (١١٤) وابن ماجه (٤٤٨،٤٠٧) وقد صححه الكثيرون.
٧١- رواه أحمد بسند صحيح (٢٥١٠٨).
٧٢- رواه مسلم (٨٣٢).
٧٣- رواه البخاري (٢٨٨) ومسلم (٣٠٥) وأبو داد (٢٢٢) وغيرهم.
٧٤- رواه ابن القطان في الوهم والإفهام (٥ / ٦٦٨) وسنده حسن.

٧٥- ونصه في البخاري (١٦٢) ومسلم (٢٣٧):» إذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يدخلها في وضوئه، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده».

٧٦- رواه ابن حبان في صحيحه ١٠٧٠) ورواه بدون» عليكم» أحمد (٧) والنسائي (١٥) وابن خزيمة في صحيحه (١٣٥) ورواه البخاري معلقاً.

٧٧- رواه أبو داود (٥٤).

٧٨- وقد فسره البعض بإبقاء اللحية مع قص الزائد كما كان يفعله ابن عمر رضي الله عنهما حيث كان إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته، فما فضل أخذه، رواه البخاري (٥٨٩٢) ومسلم (٢٥٩) ويؤيد هذا المعنى أن همزة إعفاء للإزالة أي إزالة ما عفي أي زاد.

٧٩- رواه مسلم (٢٦١).

٨٠- رواه مسلم (٢٠١٢، ٢٠١٤) واحمد (١٤٨٢٩).

٨١- سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

٨٢- رواه أبو داد (٢٦) وابن ماجه (٣٢٨) بإسناد حسن كما قال النووي في الخلاصة (١ / ١٥٤).

٨٣- سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٨٤- حيث ورد في ذلك عدة احاديث، منها قوله r:» اسم الله الأعظم في سورة من القرآن ثلاث؛ في البقرة. آية الكرسي. وآل عمران - أي فاتحتها. وطه. وعنت الوجود للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً»، رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨ / ١٢٨) والطبراني (٨ / ٢٨٢) الحديث رقم (٧٩٢٥) ورواه ابن ماجه (٣٨٥٦) والبيهقي في الأسماء والصفات (٧)، حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٢٤) والأرناؤوط في تخريج مشكل الآثار(١٧٦)، ويظهر من الحديث أن لفظ» الحي القيوم» هو المشترك في هذه الآيات الثلاث، ولذلك يقول الداعي بعد قراءتها:» اللهم إني أسألك باسمك الأعظم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ارفع عنا هذا البلاء مثلاً.

٨٥- وقد وردت في فضل سور الإخلاص، والمعوذتين بعض الأحاديث، منها: أن رسول الله r قال لعبد الله بن حبيب:» قل، قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء» رواه الترمذي (٣٥٧٥)، وقال:» حسن صحيح»، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٧٥) حسن.

٨٦- روى البخاري في صحيحه (٥٠٠٨) ومسلم (٨٠٧) بسندهما عن أبي مسعود عقبة بن عمرو أن رسول الله r قال:» من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

٨٧ () حيث روى البخاري في صحيحه (٦٤٠٣،٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١) بسندهما أن رسول الله r قال:» من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان في يومه ذلك حتى يمسي»، وزاد مسلم:» ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر.

٨٨- سورة هو، الآية رقم ٧.

٨٩- سورة الشرح، الآيتان رقم ٦،٥.

٩٠- رواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٣٢).

٩١- رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٤٢٤)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه برقم (٢٢٢٣).

٩٢- صحيح مسلم الحديث رقم ٢٢٠٤ وأحمد (٣٣٥/٣).

٩٣- صحيح البخاري الحديث رقم ٥٦٧٨، ويراجع فتح الباري (١٣٤/١٠) والترمذي الحديث ٢٠٣٨ وابن ماجه الحديث ٣٤٣٨ وأحمد (٢٧٧/١).

٩٤- الطب النبوي لابن القيم ص ١٠٠٩.

٩٥- رواه مسلم في صحيحه، رقم الحديث ٢٩٩٩.

٩٦- سورة البقرة / الآية ١٥٥ ١٥٧.

٩٧- رواه مسلم في صحيحه رقم الحديث ٢٢٣ والترمذي رقم الحديث ٣٥١٢.

٩٨- رواه البخاري. مع الفتح. (٢٦٥/٣، ٢٦٠/١١) ومسلم الحديث ١٠٥٣.

٩٩- صحيح البخاري. مع الفتح. (١٦٣/١٠، ١٦٤).

١٠٠- يراجع : سنن الترمذي. مع تحفة الأحوذي. (١٩٠/٦) والتاج الجامع للأصول (٥١٣/٧) والمجموع للنووي (١٩٦/٥).

١٠١- الحديث بشواهده صحيح كما قال الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة ط. المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ (٢٠٧/٤).

١٠٢- أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠١/٤) وسكت عنه، ورواه أحمد (٤٤٦/١) رواه النسائي مختصراً (٦٤/٢) وابن حيان الحديث رقم ١٣٩٨، والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث رقم ١٦٥٠ (٢٠٧/٤).

الأوبئة والطواعين عند المتكلِّمين

د. رامي إبراهيم البنَّا

حلَّ على العالم مع انصرام العام الفائت وبداية العام الحالي ضيفٌ ثقيلٌ مسمّى بوباء كورونا، بدأ في الصِّين وانتشر انتشار البرق، والمبهر في ذلك أنه لم يستثن أحدًا ولا قومًا ولا دولةً؛ سواء أكانت متقدِّمة أو غير ذلك، غنية أو فقيرة، لا ينظر الوباء إلى دينٍ ولا إلى عرق، والحقيقة التي شاهدناها جميعًا أن العالم كلّه بماكيناته وما حققه من تكنولوجيا قد وقف عاجزًا عن مجابهة هذا الوباء، وليس الأمر يكمن في العجز فقط، بل جاء وباء كورونا محيطًا بكمٍّ من الألغاز التي جهلها العالم المتقدِّم وقد شاهدناه وهو في حيرةٍ أو في حيصَ بيص كما تقول العرب.

سنحاول في هذا المقال وضع أمر الوباء والطواعين تحت المنظار الكلامي، لنسلِّط الضوء على ثلاث نقاط رئيسة: الأولى مشكلة الآلام والأوجاع وكيف وردت في كتب الكلام وناقشها المتكلِّمون، فأمر الوباء والطواعين يدخل تحت هذا الأمر دون نقاش، النقطة الثانية تتمثل في السؤال: «هل أمر الأوبئة والطواعين هي من قضاء الله تعالى أم لا؟، النقطة الأخيرة: «هل القول بأن الأوبئة من قضاء الله يقتضي ترك التدبير من قبل العبد؟»، وسيركِّز البحث على طوائف المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، بانتخاب أعلامٍ من متكلّمها ومناقشتهم قدر الإمكان.

أولا: وجود الآلام والأوجاع في الدنيا:

كانت مشكلة الألم والأوجاع والسعادة والفرح إحدى المشكلات الأساسية

التي سعى لحلِّها الكثير من الناس؛ كالفلاسفة الذين بحثوا المسألة من الناحية الأخلاقية، ابتداءً من سقراط والمدارس الأخلاقية كالمدرسة الأبيقورية والمدرسة الرواقية، وبتلقِّي الفلاسفة المسلمين لهذه الفلسفة أُضيفَ البُعد الأخروي لمسألة الألم والأوجاع واللذة والسعادة، وناقش الكثير من الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي ومسكويه والرازي الطبيب وإخوان الصفا وغيرهم هذه المسائل[1]، وقد كانت إحدى الحجج المتداولة على ألسنة الملحدين قديمًا وحديثًا فمما نُقِل عن ابن الراوندي (٣٠١/ ٩١٣)[2] أنه قال إن الإله الذي يسبب الأوجاع والآلام للناس لا يصح أن يكون متصفًا بالحكمة ولا الرحمة والرعاية.[3]

ناقشت المعتزلة مسألة الأوجاع والآلام من خلال إحدى المبادئ المعروفة لديهم[4]، وهو مبدأ العدل، فالله عز وجل هو عدل لا يظلم عباده، ويجب في حقِّه فعل الأصلح لعبده، مما هو مشهورُ بين أوساط المعتزلة بمسألة الصلاح والأصلح ومسألة اللطف ونحو ذلك، وقد ذكر القاضي عبد الجبَّار (٤١٥/ ١٠٢٥) أحد كبار متكلِّمي المعتزلة- أن مسألة الأوجاع والآلام كانت سببًا في حيرة الكثير من الناس؛ وكان السبب الأساس الذي أوقع الناس في هذه الحيرة، هو الخطأ في تصورهم للآلم والوجع؛ فبعضهم اعتقد أن كل الآلام حسنة وكل الملذَّات قبيحة، كذلك آخرون قالوا بأن الآلام لا تقع إلا لمستحقِّيها، وبذلك وقع هؤلاء في حيرةٍ من أمرهم في إصابة الأطفال الذين لا ذنب لهم بهذه الآلام، وكي يزيلوا الشبهة عن ذلك قالوا بأن هذه الآلام لم تكن فيهم بل كانت في قالبٍ آخر عصوا الله فنقلهم إلى هذا قالب الأطفال كأهل الاستنساخ.

إن القاضي عبد الجبّار يرى أن مسألة الآلام والأوجاع كغيرها من الأفعال له جوانب حسنة وله جوانب قبيحة؛ ويسير القاضي على نهج المعتزلة في تعريفهم للحسن وربط مفهومه بالنفع العائد على الإنسان، فالآلام هنا تحسن من جهة قد تكون فيها نفعٌ لصاحبها أو دفع مضرّة أكبر من الألم الذي يعيشه صاحبه[5]، ويضرب مثالا على ذلك من الإنسان يستحسن تحمّل معاناة السفر طلبًا للربح والتجارة، وكذلك يلتمس المداوة في شرط الأذنين والفصد

والحجامة، وهكذا يكون الألم حسنًا، فإن كانت الجهة التي يحسن منها الألمُ غير معلومة فمجرد الظن بنفع الألم يتوجّب حسنه.[٦]

إن هناك سؤال آساسي هنا قد طرقه القاضي عبد الجبار، هذا السؤال يكمن في نقاش هذه الآلام والأوجاع من ناحية المكلَّف، فإننا قد قررنا سابقًا أن الأمر من ناحية الله حسنٌ كله، لكن من ناحية المكلَّف قد يبدو غير ذلك، فما ذنبُ طفلٍ قد أصيب بألمٍ على سبيل المثال؟!

يجيب القاضي على هذا السؤال انطلاقًا من مبادئ المعتزلة مرة أخرى؛ فهم يقولون بأن الله عدلٌ لا يجوز في حقِّه الظلم أبدًا، والأمر الثاني أن فعله كلَّه حكمةٌ ليس به عبث، وارتكازًا على هذين المبدأين فإن القاضي يبدأ بغير المكلَّف وهو الأكثر إشكالا في المسألة، ويخرج بنظرية الأعواض، فإن الألم إذا وصل إلى غير المكلَّف فإيمانًا بعدالة الله وحكمته سيحصل غير المكلَّف على الأعواض التي تعوِّضه عن هذا الألم، أما إذا وصل الألمُ إلى المكلَّف فإن الأمر هنا إضافة إلى الأعواض فيه عبرةٌ لنفسه ولغيره في آنٍ، وبهذا تكون الآلام حسنة

من الله بعدله وحكمته.[٧]

هناك إشكالية أخرى في هذه المسألة كيف تكون مثل هذه الآلام دون رضا المرء؟ هل هذا يكون من العدل؟، والجواب على هذا السؤال عند القاضي بأن الله تعالى هو صاحب الجود والكرم كله، العالم بكل شيءٍ يتعلق بنا كخلق، في مقابل هذا فإن الخلق محدودو العقل والفكر، قد يجهل الإنسان مصلحته ومنفعته، فيكون الألم الذي يرسله إلينا بالأعواض التي لا نعلمها فيها الخير والنفع لنا.[٨]

أما الماتريدية فإنهم يرون بأن الله تعالى لا يجب عليه فعل شيء على الإطلاق، إذ الوجوب يأتي منه، فيجوز أن يفعل بالعبد ما هو ليس بمصلحة له[٩]، فمبدأ وجوب شيء على الله تعالى لا يليق بذاته، فالألوهية تنافي هذا، فلله أن يفعل ما يشاء لعباده بعدله وبفضله، سواء أكان سعادةً أو ألمًا، إيمانًا أو كفرًا، فأما خيره فإنما هو لطفٌ من الله تعالى على عباده، ولو منع ذلك عن بعض عبيده كان عدلا منه وقهرًا، وهو محمودٌ في كل حال.[١٠]

إن التزام مبدأ الوجوب على الله عند المعتزلة ينقص من معنى الألوهية عند الماتريدية فإن من لوازم الألوهية المطلقة الولاية المطلقة، ومبدأ الوجوب هذا يخرج من معنى الألوهية الولاية المطلقة لله على عباده، إضافة إلى هذا فإننا إذا قلنا بأن هداية الله لعباده ومنحهم الحسن وأنواع السعادة إنما هي هباتٌ من الله، وقلنا مع ذلك بأن هذا الأمر واجبٌ عليه، سيقع هذا الكلام في تناقض؛ إذ القول بالوجوب على الله ينفي مبدأ المنة لأنه سيكون في هذه الحالة قد أعطى شيئا مستحقًا لعباده، إضافة إلى هذا فإن القول بوجوب فعل الأصلح على الله لعباده، يقضي بتناهي مقدور الله لأنه سيكون أعطى عباده كل شيء، ولم يبق في مقدوره شيء إلا أعطاه.[١١]

وقد استدلَّ أبو المعين النسفي لذلك بأدلة من الكتاب والإجماع، فمن القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾[١٢]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[١٣]، وقال عز من قائل: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**﴾[١٤]، ولو لم يكن في مقدوره هذا لما بقي لهذه الآيات من معنىً يُذكَرُ[١٥]، أما الإجماع فيقول النسفي: «فقد أجمع المسلمون وأهل

الأديان السماوية قبلهم على الدعاء لله تعالى، وطلب المعونة على الطاعات والعصمة من المعاصي، وكشف ما بهم من الضر وإزالة ما بهم وبأهل عنايتهم من المرض وتبديل ذلك بالعافية».[١٦] فسؤال المسلمين لله تعالى أن يرفع عنهم الأضرار والأمراض يدلُّ على أن ما حلَّ بهم من أوبئة إنما هو مضرَّة لهم وليس مصلحة، وإلا ما أصبح لسؤالهم من معنى، ويردُّ المتكلِّم الماتريدي على المعتزلة في قولهم: «إيجاد القبيح قبيح وإيجاد السفه سفه» بقوله إنه قد ثبتَ أولا أنه لا خلق ولا اختراع إلا من الله تعالى، كذلك ثبت أن لله تعالى الحكمة الكاملة في فعل أي شيء، وبناء على هاتين المقدمتين فإن كل ما أوجده الله تعالى ففيه حكمةً سواء أكان قبيحًا أم حسنًا، لكن النسفي ينعى على المعتزلة بأنهم يحكمون فيما ليس لهم اطّلاع عليهم، فلا أحد يستطيع أن يحيط بكل حكم الله من أفعاله عزّ وجلّ.[١٧]

إن المتكلّمين من أهل الحديث ﴿بتعبير النسفي- يرون بأن الفعل القبيح والفعل الحسن كلاهما متوقِّفٌ على مجيء الأمر والنهي في النصوص، وبما أن الله جل شأنه لا أحد يحق له أن ينهاه أو يأمره، بل هو الآمر الناهي، فلا يوجد إذن في أفعاله السَّفه أو ما يوصَفُ بالقُبح على الإطلاق.[١٨] وقد يعني النسفي هنا «بأهل الحديث» الأشاعرة والماتريدية كليهما؛ فالأشاعرة رأوا بأن الحسن والقبح متوقفٌ على الشرع وليس العقل، كما صرّح بذلك الشهرستاني قائلا: «مذهب أهل الحق أن العقل لا يدل على حسن الشيء وقبحه»، ونفوا أن يكون الفعل لنفسه قبيحًا أو حسنًا بل هو متوقف على مدح الشرع أو ذمِّ فاعله.[١٩]

إن الماتريدية يرون أن الله خالق كل شيء ويدخل تحت «كل شيء» الأشياء الخبيثة لكن لا ينبغي أن تنسب هذه الأفعال لله تعالى على وجه التخصيص لأنه لا يليق بالله تعالى ذلك، لأن إضافة الخاص له تدخل في باب تعظيم هذا الشيء كقولنا: إله محمد وإله موسى وإله هارون، أما الأشياء القبيحة فلا ينبغي تعظيمها بحال فلا ينبغي القول بياخالق القردة والخنازير أو ياخالق الأوبئة كذلك.[٢٠]

ورد هناك تفصيلٌ آخر أُطلِق عليه بجهات الفعل، أي أن الفعل له عدة جهات بجهة منها يكون قبيحًا بينما من الجهة الأخرى قد يكون حسنًا، وقد

ورد هذا التفصيل عن طائفة النجَّارية [٢١]، وهذه النظرة قريبة من تفصيل القاضي عبد الجبار سابقة الذكر، وبالرغم من أن فيها شيء من المنطقية إلا أن كل من الأشاعرة والماتريدية قد أنكروا القول بجهات الفعل، ولن نفصِّل هنا في هذه النظرة لضيق المقام.[٢٢]

إن الأشاعرة يتشاركون مع الماتريدية في أن الله لا يجب عليه شيء من قبل عبيده، وانطلاقًا من تعظيم مبدأ الألوهية وأنه لا يحدُّه حدٌّ من عبدٍ، ينقل ابن فورك عن أبي الحسن الأشعري أن ألطاف الله بعباده لا حدَّ لها ولا غاية منها، وهي مخصوصة بالمؤمنين به فقط، أما الكفار فليس لهم لطف الله، والله حكيم في كل أفعاله عدلٌ منعه لا يعني بخلا بحال فهو تعالى عن ذلك، وعطاؤه لا يعني أنه يجب عليه هذا العطاء لعبيده بحال[٢٣]، «وأفعال الله تعالى كلها حكمة وحسن وصواب وحق وعدل وبعضها مصلحة وصلاح وأصلح لمن فُعل فيه»، وخلق الله تعالى من يعلم أنه يكفر ويدخل النار ويتعذّب مع علمه بذلك ليس فيه مصلحة بحال لهذا العبد[٢٤]، وبنفس المنطق الذي رفض به الماتريدية مبدأ الصلاح والأصلح عند المعتزلة، رفض الأشاعرة به هذه النظرية، فالقول بأنه يجب على الله فعل الأصلح لعبده يعني وجوب تناهي مقدور البارئ تعالى.[٢٥]

إن أبا الحسن قد أتى على الاتجاه المضاد للمعتزلة في مسألة الأسباب والحكمة، فقد رفض أن يوضَّح فعل الله تعالى ويُربَط بسبب ما، وبلفظ ابن فورك عن الأشعري يقول: «وكان يحيل قول من قال إن الله تعالى فعل كذا لكذا، أو إن الله تعالى فعل كذا وأراد به لطف غيره وصلاحه، وذلك لإحالته أن يفعل الله الشيء لعلة أو لسبب».[٢٦]

إن مفهوم الحكمة عند الأشعري هو أن فعل الله في حدِّ ذاته حكمة سواء أبدا لنا هذا الفعل حسنًا أو بدا قبيحًا، فلا يصح في نظره تفسير فعل الله واستخراج حكمة عن فعل غيره، وقد ضرب مثلا على ذلك بالألوان والحركات، فكلٌّ منها بالنسبة لنا ألوانٌ وحركاتٌ أما بالنسبة للذات الإلهية هي فعل، وعلى هذا يقول أبو الحسن الأشعري: «قد يكون عين الشيء منا قبيحًا ويكون حسنًا منه، ويكون لنا سفهًا ومنه حكمة»[٢٧]، وقد عرَض ابن فورك لآراء الأشعري في معنى الحكمة في فصل التجوير والتعديل، والتجوير من الجور

أي الظلم والتعديل من العدل، ونسبة كل منهما إلا الله، فأبو الحسن يقول هناك أنه يتفق مع مخالفيه في أن كل أفعال الله لها حكمة، لكنه في الوقت يقول بأن هذه الأفعال هي حكمة لأعيانها لا لمعنىً، وقد جوّز الأشعري أن يكون الفعل الواحد عدلا لعينه وهو لمعناه جورًا وظلما، وحكمة لعينه ولمعنىً سفهًا، وقد ضرب مثالا على ذلك طاعتنا لله فهي طاعة لله لكن في الوقت نفسه معصية للشيطان، فالفعل الواحد قد يكون حسنًا قبيحًا عدلا جورًا من جهتين مختلفتين.[٢٨]

وبنفس المنطق رفض أبو الحسن الأشعري مبدأ ربط أفعال الله بأغراض تتبعها أو بمنفعة ومضرة للإنسان كما هو الحال عند المعتزلة، فالله عنده له مطلق الإرادة ولا تُعلل أحكامه بحال ولا يوضَّح لها غرض، بل أفعاله كلها حكمة لعينها لا لشيء آخر، وربط الحكمة بمنفعة للإنسان أو مضرة له، لا يقبله أبو الحسن، فقد يجوز لله أن يفعل ما للعبد من مضرة ويكون منه حكمة، فله تعالى أن يتبدئ العبد بالمضرة المحضة دون أن يتعقب ذلك منفعة[٢٩]، وابتداء الخلق بالآلام وإدامتها لهم كابتدائه بالنعم وإدامتها لهم وتخصيص البعض دون بعض سواء في الحكمة.[٣٠]

ويرى أبو الحسن الأشعري أن الناس على أربعة أنواع منهم من خلقه الله وأراد منفعته في الدنيا والآخرة، والنوع الثاني من خلقه الله وأراد منفعته في الدنيا دون الآخرة، والثالث من خلقه وأراد مضرّته في الدنيا ومنفعته في الآخرة، ومنهم من خلقه وأراد مضرّته في الدنيا والآخرة.[٣١]

يرى ابن تيمية أن الله لا يخلق شرًّا محضًا، وإنما يخلقه بحكمة وهو باعتبار تلك الحكمة من إحسان الله تعالى، فالله لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وخير، كما قال الرسول الله في دعاء الاستفتاح: «والخير بيديك، والشر ليس إليك»، وهذا الشر الذي قد يكون لبعض الناس أطلق عليه ابن تيمية مصطلح «الشر الجزئي»، أما الشر الكلي والمطلق فالرب منزه عنه، والشر الجزئي الإضافي هو خير باعتبار الحكمة التي فيه، ولهذا لا يُضاف الشر إلى الله مفردًا ﴿كما تقدّم ذلك عن الماتريدية- لكن يجوز أن يدخل في عموم خلقه تعالى كما قال الله عز وجل: «وخلق كل شيء»، أو يُضاف إلى السبب كقوله عز وجل:

«ومن شر ما خلق»، أو يُحذف فاعلُه كما ورد في القرآن أيضا: ﴿**وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾ (سورة الجن: ١٠)، وينعى ابن تيمية على كلٍّ من الفريقين؛ الذي رأى أن الله لا يخلق أفعال العباد، ذلك لأنهم رأوا أن من بين هذه الأفعال أفعال قبيحة، والفريق الآخر الذي جوّز على الله فعل كل شيء، كأمره بالكفر والمعصية ونهيه عن الإيمان والطاعة، وتعذيبه الأنبياء وإنعامه للفراعنة والمشركين، وهذا مخالف لصريح القرآن حيث قال الله تعالى: «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون».

أما فيما يراه الإنسان بأنه شرٌّ محض، أو ما أطلق عليه ابن تيمية بأنه شرٌّ جزئيٌّ كأمر الأوبئة والطواعين، فيقول بأنه ليس معنى أننا لا نعرف الحكمة من هذا الشرّ بأنها معدومة، بل قد يكون فيها من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعض الناس[٣٢]، لكن مما لا شكَّ فيه ولا شبهة أن الله عز وجل خلق كل شيء وكان من وراء خلقه له حكمة، سواء أكان هذا الشيءُ خيرًا أو بدا لنا شرًّا، فالله تعالى قال: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ (سورة السجدة: ٧)، وقال: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ**

﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة النمل: ٨٨)، يقول ابن تيمية: «فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خلق لأجلها خير وحكمة وإن كان فيه شر من جهة أخرى فذلك أمر عارض جزئي ليس شرا محضا بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم وإن كان شرا لمن قام به».[٣٣]

ويفسِّر ابن تيمية أمر الحكمة وفهمها تفسيرًا عقلانيًا؛ فالناس متفاوتون بطبيعة أحوالهم في معرفة الحكمة من وراء الأشياء، فكلما ازداد الإنسان علمًا بحقائق الأمور ازداد علمًا بحكمة الله تعالى وعدله وقدرته ورحمته، ويربط بين ذلك وبين عبادة العبد وتألّهه، لكنه يقول بأن الحكمة من أفعال الله عز وجل لا تنجلي كلها، بل قد لا يستطيع أكثر الناس معرفة الحكمة من هذا، وأكثر من ذلك ورد في القرآن حينما خفي على الملائكة الحكمة من خلق البشر حينما قال الله تعالى للملائكة: «إني جاعلٌ في الأرض خليفة»، ردُّوا قائلين ظانّين أن هذا من قبيل الشرّ: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٠).[٣٤]

ثانيًا: هل الوباء من قضاء الله؟

قدَّمنا أعلاه نظرة المتكلّمين إلى مسألة الشرور والبلايا والمصيبات في إطار إرادة الله عزّ وجل؛ ويمكن القول بأن هناك ثلاثة أجوبة على السؤال الذي يقول بأن مثل الأوبئة والشرور والمصائب التي تحل بالإنسان هل هي من خلق الله تعالى أم لا؟، الجواب الأول يقول بأن هذه الشرور ليست من خلق الله لأن الله تعالى حكيم عدلٌ إنما هي من خلق الإنسان، والرأي الثاني ينسب الشرور إلى الله تعالى مع القول بأنه تعالى لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون؛ بمعنى أنه ليست ثمة حكمة من فعله نبحث عنها، بل فعله عين حكمته، وجوابٌ أخير هو القول بمسألة الشر الجزئي أو الإضافي؛ ويعني هذا أن الله تعالى منزّهٌ عن خلق الشر المحض، وإذا وُجد شرٌّ فلابد أن يكون من ورائه خيرٌ يعود على العباد، والله تعالى حكيمٌ يفعل ما هو أصلح لعباده دون شكّ، فله الكمال في صفاته وأفعاله.

لقد وردت في النصوص القرآنية وفي الأحاديث النبوية أن الشرَّ لا يُنسب إلى الله تعالى؛ وقد يكون الأمر هنا لسببين، أولهما أنه -كما تقدّم- منزَّهٌ عن فعل الشرِّ المحض، والآخر أن هذا الشر المحض

هو متوهمٌ بمعنى أنه شرٌّ نسبيٌّ، وتوهّمنا بأنه شرٌّ محضٌ إنما هو نابعٌ عن جهلنا بحقيقة الحكمة من وراء هذا الشرّ، وقد تقدّم أن العلم بالحكمة من وراء أفعاله عز وجل قد تتوفّر لأناسٍ دون أناس، وقد تخفي على الناس جميعًا، بل ورد في القرآن صراحةً خفيان الحكمة من خلق آدم عليه السلام على الملائكة، وأخيرًا هنا يمكن تطبيق هذه النظرة على مسألة الأوبئة والطواعين. لكن بعد كل هذه المقدِّمات إذا حاولنا الإجابة على السؤال: «هل الوباء من قضاء الله؟» فيمكن القول بناءً على ما تقدّم؛ بأن هذا البحث يتعلّق ببحث الإرادة عند المتكلّمين، فالمعتزلة مرة أخرى انطلقوا من مبدأ تنزيه الله تعالى ووصفه بالعدالة والحكمة وأن كل أفعاله حسنة ولا يفعل القبيح، يقول القاضي عبد الجبّار في تنظيره لمبدأ الإرادة الإلهية: «فاعلم أن الطريق إلى معرفة هذه الصفة في الشاهد إنما هو الضرورة، ولا يمكن معرفتها استدلالا لأن كل دلالة تدل عليها فمبنية على العدل والحكمة»،[٣٥] فبناء على هذا هو لا يريد القبيح، فليست الشرور من قضاء الله ومشيئته وإرادته بناء على هذا، فهو لم يرد الشر والقبائح ولا يقضي بها، ذلك لأن إرادة القبيح إنما تقبح لكونها إرادة لهذا القبيح.[٣٦]

إن القاضي عبد الجبار يعترض على القول المشهور على ألسنة المسلمين: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» قائلا بأنه لا يُعلم المراد من هذا القول بالضرورة، ومن لا يُعلم مراده على التحقيق يُلجأ فيه إلى التأويل، فالتأويل هنا يقتضي معنى أن ما يفعله الله على الوجه الحسن المفضي إلى المدح حدث.[٣٧]

والجدير بالذكر هنا أن المعتزلة قد ربطوا بين صفة الإرادة وبين صفتي المحبة والرضى، فصفة المحبة والرضي والاختيار كلها راجعة بالطبيعة إلى معنى الإرادة، فما أراده الله تعالى أحبه ورضي به واختار إيجاده وشاءه، وما لم يرده الله فإنه لا يحبه ولا يرضاه ولا يختاره، بل يكرهه ويغضب على فاعله، كذلك سوّى المعتزلة بين الإرادة والأمر، فما أراده الله أمر به، وما لم يرده لم يأمر به.[٣٨]

أما موقف الأشاعرة والماتريدية فقد انطلقوا من مبدأ أن إرادة الله عزّ وجلّ شاملة كل ما في الكون، فلا يوجد حدثٌ في الكون حدث رغمًا عنه، ويمكن تلخيص موقف الأشاعرة كالتالي؛ ربط الأشاعرة بشكلٍ أساسي بين الإرادة والخلق، فكل مخلوقٍ لله هو

مراد الله، كذلك ربطوا بين المحبة والإرادة، فكل معاني الحب والرضى والغضب ترجع إلى معنى الإرادة أو عدم الإرادة، وكان النتيجة لهذا أن الكفر والمعاصي والشرور تقع بإرادة الله لأنه خالقها، وفي الوقت نفسه يحبها ويرضاها، لأنه من المحال أن يقع في ملكه ما يكره، هذا بينما رأى المعتزلة أن الشرور لا تحدث بإرادة الله في الكون، لأنه تعالى لم يأمر بها[٣٩]، أما الماتريدية فموقفهم مثل موقف الأشاعرة في هذه المسألة وقد انطلق النسفي وغيره من المتكلّمين من قول المسلمين: «ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» أي أنه لا يوجد في هذا الكون شيءٌ خارجٌ عن إرادة الله ومشيئته سواء أكان حسنًا أو قبيحًا شرًّا أو خيرًا.[٤٠]

بينما قسَّم ابن تيمية الإرادة الإلهية إلى نوعين من الإرادة؛ إرادة كونية وهي إرادة عامّة شاملة لكل ما يحدث في هذا الكون، فلا شيء في الكون بخير وشرِّه وجميله وقبيحه يحدث خارج إرادة الباري تعالى، وهي المقصودة من قول المسلمين: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»، ومن قول الله تعالى: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله»، وبالطبع يدخل في هذه الإرادة أمر الوباء والطواعين، فهو داخل تحت إرادة الله تعالى، والنوع الثاني من الإرادة هي إرادة دينية والتي تعني الأوامر الدينية

الواردة في النصوص، مثل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥)، ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (سورة المائدة: ٦)، وبناء على هذا فإن الحكم والقضاء والكتاب والبعث والإرسال ونحوه ينقسم إلى كوني قدري وإلى ديني شرعي.[٤١]

وحاصل القول مما سبقَ أن كلا من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وقفا على طرفي نقيض؛ ويأتي تفصيلُ ابن تيميّة هنا حلا للإشكال الذي وقع بين الطرفين، ووفقا لهذا التفصيل فإن المعتزلة قد غضّوا الطرفَ عن الإرادة الكونية ناظرين للإرادة الشرعية الدينية وسحبوها على كل إرادة لله تعالى، أما الأشاعرة والماتريدية فقد تعلّقوا بالإرادة الكونية وسحبوها على كل إرادة لله تعالى، وكان من النتائج الخاطئة للموقف الأول أن يقع في الكون ما هو خارجٌ إرادة الله، كذلك الموقف الثاني أن يرضى الله عمّا يكرهه بنص القرآن ككفر الكافر على سبيل المثال، أما ابن تيمية فقد وضع في الاعتبار الإرادتين وبذلك قد حلَّ الإشكال، وبذلك أيضًا يكون الجواب على السؤال بأن الوباء هو من قضاء الله تعالى أم لا؟، أن من قضاء الله وإرادته الكونية، فلا يحدث في الكون شيئًا رغما عنه، مع الاحتراز الآخر أن القبائح لا تُنسب إلى الله إلا جُملة من غير تفصيل.

ثالثًا: هل القول بأن الأوبئة من قضاء الله يقتضي ترك التدبير من قبل العبد؟

إننا إذا سلّمنا بالتفصيل في مسألة الإرادة الوارد سابقًا فسنستطيع إذن الجواب على هذا السؤال بسهولة، فأساس الخلط هنا عند الكثير هو القضاء الكوني والقدر الكوني، وحتى لا يطول البحثُ هنا فإن هذه المسألة تتعلق بمسألة الأسباب وتأثيرها في الفعل الإنساني، إضافة إلى الخلط بين القدرين، لكن هنا ينبغي توضيح نوعين من الأفعال التي تتعلق بالإنسان من جانب القضاء الكوني:

الأول: نوع يشارك فيه الإنسان بفعل الأسباب التي يترتب عليها وقوع القضاء الكوني أو القيام ببعض عناصره كالهارب إذا أتلف زرعًا، وكالقتل الخطأ، كذلك في حالة الوباء التي نشهدها نحن في العالم اليوم، فجميع العقلاء متفقون على أن نشوء هذا الوباء كان له أسبابٌ متعلقة بتصرّفات خاطئة بدأت من الصِّين، ولو لم تكن هذه

التصرّفات لم ينتشر مثل هذا الوباء.[٤٢]

الثاني: نوعٌ لا حيلةَ لإنسان في منعه ولا تحصيله، كأمر الزلازل التي تحدث أو المطر الذي يأتي فجأة فيهلك الزرع والنسل، وهذا من قبيل الابتلاء الذي يصبر عليه المرء فيثاب.[٤٣]

بيدَ أنَّه معلومٌ عند جميع العقلاء أنه في كلتا الحالتين ينبغي على المرء أن يتخذ الاحتياطات والتدابير لمنعها، حتى وإن لم يكن يستطيع منعها بالكلية، فأمر الزلازل والمطر الكبير، يمكن بقدر الإمكان تخفيف أثاره، بأن تبنى مبانٍ قوية أو لها ما يمكن أن تقاوم الزلازل وتمتصّه، وكذلك الأمر في الأمطار، أما الأوبئة فنحن نشهد جميعًا الاحتياطات والتدابير التي سادت في العالم كلِّه دون إنكار من ذوي العقول، على وجوب الاحتياط والتدبير في منع الوباء، وكذلك الدّين وعند المتكلّمين، فلا يُتصوّر أحد يقول بإلقاء النفس في التهلكة، وكما تشهد بذلك النصوص.

الخاتمة:

بعد هذه التطوافة القصيرة مع المتكلِّمين يمكن القول بأن مسألة الأوبئة والأمراض نوقشت تحت أمر الشرور والقبائح في الدنيا، وهل تكون هذه الشرور والقبائح ضمن إرادة الله عزّ وجلّ، الجواب بشكلٍ عامٍّ أن ما تشهد به النصوص والعقول أنه لا يحدث في هذه الدنيا شيء خارجٌ عن إرادة الله، لكن الله تعالى له الكمال في أفعاله وصفاته لا ينسب إليه الشرُّ والسيء، بالإضافة إلى ان مثل هذا الشرِّ قد يكونُ في حقيقته أو في مآله خيرٌ للمرء دون أن ينتبه للحكمة من ورائه، والجهل بالأمر لا يعني انعدامه أصلا.

إن الاعتقاد بأن كل أمرٍ يحدث بإرادة الله لا يعني ترك الأمور التي يستطيع الإنسان أن يرفعها بنفسه دون تدخُّلٍ منه وقد شهد العقل والنصُّ بأن من ألقى نفسه بالنار فهو المهلك لنفسه؛ لهذا نهى النص عن إلقاء النفس في التهلكة، وأمر الدِّين الحنيف بالأخذ بالأسباب بالاتّفاق، ومن الأخذ بالأسباب في الوباء والمرض، بذل الجهد في الوقاية من المرض مع العلم أن كل شيء يتم بأمر الله، والسعيُ في التداوي بعد حدوث المرض، والصبر الجميل مع كل هذا.

المراجع العربية:

الخياط، الانتصار والرد على ابن

الروندي الملحد، تحقيق الدكتور نيبرج، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٥.
القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦.
أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، المعتزلة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥.
النسفي، تبصرة الأدلة في أصول الدين، تحقيق محمد الأنور حامد عيسى، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١١، ٢/ ٩٨٨.
نور الدين الصابوني، البداية في أصول الدين، تحقيق بكر طوبال أوغلو، مطبوعات وقف كلية الإلهيات بجامعة مرمرة، ٢٠١٧؟
نور الدين الصابوني، الكفاية في الهداية، تحقيق محمد آروتشي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٤.
الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، تحقيق الفرد جيوم، مكتبة المثنيى، ببغداد، دون تاريخ.
هند بنت أحمد بن براك العصيمي، النجارية في كتب المقالات، المجلد الثاني من العدد الثالث والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية.
ابن فورك، مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري، تحقيق دانيال جيماريه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.
ابن تيمية، مجموع الفتاوي، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥.
محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر لدى مفكري الإسلام (أصولها النظرية-جوانبها الميتافزيقية-أثارها التطبيقية)، دار قباء القاهرة، ٢٠١٠.
أبو شاكور السالمي، التمهيد في بيان التوحيد، تحقيق عمر تركمان، نشريات وقف الديانة التركي، أنقرة، ٢٠١٧.

المراجع الأجنبية:

https://en.wikipedia.org/wiki/COVID-19_pandemic.(31.10.2020).
Mustafa ÖZ, «NECCÂRİYYE», TDV İslâm Ansiklopedisi, https://islamansiklopedisi.org.tr/neccariyye (25.10.2020).
Metin ÖZDEMİR, İslam Düşüncesinde Kötülük Problemi, Kaknüs Yayınları, İstanbul.
İlhan KUTLUER, «İBNÜ'r-RÂVENDÎ», TDV İslâm Ansiklopedisi, https://islamansiklopedisi.org.tr/ibnur-ravendi (25.10.2020).
İlhan KUTLUER, «ELEM», TDV İslâm Ansiklopedisi, https://islamansiklopedisi.org.tr/elem (29.10.2020).

الهوامش:

١- انظر ملخصًا جيدًا عن نظرة الفلاسفة لمسألة الألم واللذة في موسوعة المعارف الإسلامية التركية:

İlhan KUTLUER, «ELEM», TDV İslâm Ansiklopedisi, https://islamansiklopedisi.org.tr/elem (٢٩,١٠,٢٠٢٠).

٢- انظر في ترجمته:

İlhan KUTLUER, «İBNÜ'r-RÂVENDÎ», TDV İslâm Ansiklopedisi, https://islamansiklopedisi.org.tr/ibnur-ravendi (25.10.2020).

٣- نقل هذا القول الخياط عن كتاب لابن الروندي مسمًّى بالتعديل والتجوير، انظر:

الخياط، الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، تحقيق الدكتور نيبرج، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٥، ص ٢.

Metin ÖZDEMİR, İslam Düşüncesinde Kötülük Problemi, Kaknüs Yayınları, İstanbul, s. ٨١.

٤- مبادئ المعتزلة الأساسية خمسة هي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر: القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦، ص ١٢٨-١٤١.

٥- انظر: أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، المعتزلة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٤٣.

٦- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص ٤٨٤.

٧- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ٤٨٥.

٨- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ٤٩٢.

٩- النسفي، تبصرة الأدلة في أصول الدين، تحقيق محمد الأنور حامد عيسى، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١١، ٢/٩٨٨.

١٠- نور الدين الصابوني، البداية في أصول الدين، تحقيق بكر طوبال أوغلو، مطبوعات وقف كلية الإلهيات بجامعة مرمرة، ٢٠١٧/ ص ٧٣-٧٤، وللمؤلف نفسه، الكفاية في الهداية، تحقيق محمد آروتشي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٤، ص ٣٠٦.

١١- الصابوني، الهداية في الكفاية، ص ٣٠٦؛ البداية في أصول الدين، ص ٧٤.

١٢- سورة السجدة، الآية ١٣.

١٣- سورة الأنعام، الآية ١٤٩.

١٤- سورة يونس، الآية ٩٩.

١٥- النسفي، تبصرة الأدلة، ٢/٩٩٢، يُرجع إلى نقض النسفي في مسألة الأصلح عند المعتزلة باستفاضة لهذه الصفحات وما بعدها.

١٦- النسفي، تبصرة الأدلة، ٢/١٠٠٠،٩٩٩.

١٧- النسفي، تبصر الأدلة في أصول الدين، ٢/ ٩١٩.

١٨- النسفي، تبصرة الأدلة، ٢/٩١٩

١٩- الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، تحقيق الفرد جيوم، مكتبة المثنى، ببغداد، دون تاريخ، ص ٣٧٠.

٢٠- النسفي، تبصرة الأدلة، ٢/٩٢٥.

٢١- النجارية طائفة من المتكلمين زعيمهم الحسين بن محمد النجار الرازي، ومعظم أتباعه كانوا في الري، وقد تشكّلت وتطوّرت كفرقة في عصر الخليفة العباسي المأمون، وقد قيل بأنهم من المعتزلة وقيل بأنهم من المرجئة، وغير ذلك، انظر في النجارية وآرائهم الكلامية بحث:

هند بنت أحمد بن براك العصيمي، النجارية في كتب المقالات، المجلد الثاني من العدد الثالث والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، ٦٧٩

.(Mustafa ÖZ, «NECCÂRİYYE», TDV İslâm Ansiklopedisi, https://islamansiklopedisi.org.tr/neccariyye (25.10.2020

٢٢- النسفي، تبصرة الأدلة، ٢/ ٩٣٠.

٢٣- ابن فورك، مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري، تحقيق دانيال جيماريه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٢٥.

٢٤- ابن فورك، مقالات أبي الحسن الأشعري، ص ١٢٧.

٢٥- ابن فورك، مقالات أبي الحسن الأشعري، ص ١٢٧.

٢٦- ابن فورك، مقالات أبي الحسن الأشعري، ص ١٢٩.

٢٧- ابن فورك، مقالات الأشعري، ص ١٣٠.

٢٨- ابن فورك، مقالات الأشعري، ص ١٤٠.

٢٩- ابن فورك، مقالات الأشعري، ص ١٤١.

٣٠- ابن فورك، مقالات الأشعري، ص ١٤٢.

٣١- ابن فورك، مقالات الأشعري، ص ١٤٤.

٣٢- ابن تيمية، رسالة الحسنة والسيئة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤٦.

٣٣- ابن تيمية، مجموع الفتاوي، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥، ٨/ ٥١١.

٣٤- ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ٨/ ٥١٤.

٣٥- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص ٤٣١.

٣٦- القاضي عبد الجبار، شرح الإصول الخمسة، ص ٤٦٢.

٣٧- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص ٤٦٩.

٣٨- محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر لدى مفكري الإسلام (أصولها النظرية-جوانبها الميتافزيقية-أثارها التطبيقية)، دار قباء القاهرة، ٢٠١٠، ص ١١٦-١١٧.

٣٩- محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر، ص ١٢٩.

٤٠- النسفي، تبصرة الأدلة، ٢/ ٩٦٧؛ أبو شاكور السالمي، التمهيد في بيان التوحيد، تحقيق عمر تركمان، نشريات وقف الديانة التركي، أنقرة، ٢٠١٧. ص ١٣٣.

٤١- ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ١٨/ ١٣٢.

42- https://en.wikipedia.org/wiki/COVID-19_pandemic.

٤٣- انظر: الجليند، قضية الخير والشر، ٢٦٤.

هل يُطَوِّرُ الوباء مَسَار العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة؟

القاضي الدّكتور عبّاس الحلبي

تترُكُ الأحداثُ الضّخمَة بإيجابيَّاتِها وسلبيَّاتِها الأثرَ العميق في حياة الإنسان وسلوكيّاته وفي مصير المجتمعات وحركيّتها. فالأوبئةُ والأمراض والزّلازل والحروب والثّورات الاقتصاديّة والصناعيّة والاكتشافات الأثريّة والعلميّة والطبيّة بدّلت عبر العصور وبطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة مسير الفرد والجماعة، راسمةً في أحيانٍ كثيرة مجريات التّاريخ١. والعلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة بكونها نشاطًا إنسانيًّا محضًا، خضعت منذ بداياتها لمتغيّراتٍ عدّة تبعًا للتطوّرات الدينيّة والمجتمعيّة والسياسيّة والحضاريّة المتلاحقة وللظّروف المكانيّة والزمانيّة. وممّا لا شكَّ فيه أنَّ وباء الكورونا الّذي قطعَ التّواصل بين العوالم كافّة وبين الإنسان وأخيه، سيترك أثره على مسار ومصير الحوار الديني وتحديدًا الحوار الإسلامي - المسيحي.

فما هي آثار الوباء المرجّحة على كينونة وصيرورة هذه العلاقات وعلى التّواصل بين المسلمين والمسيحيين؟ وهل سيُضيف الوباء إليها مسحةً جديدة أم سيتركها تائهةً في دنيا العولمة وفي فضاء المتغيّرات، قاطعًا شرايينها وأوصالها؟... وحدها الرؤية الواقعيّة والمسيرة التاريخيّة بما فيها من أحداثٍ ومؤثّرات وعِبَر تقَيِّمُ الحاضر وتستشرف المستقبل، راسمةً البداية والتتمّة من خلال تطوّراتٍ منظورة وأخرى مرتقبة.

١- التطوّرات المنظورة:

فَاجَأَ وباء الكورونا البشريّة، لأسبابٍ عدّة منها، سرعة تطوّره وانتشاره، وعدد القتلى الّذينَ قَضَوا نتيجة العدوى به، خصوصًا المتقدّمين في السِّن، هذا إلى جانب المتغيِّرات العديدة التي أحدثها على صعيد الحركة المجتمعيّة، مبطِّئًا الدّورة الماليّة والاقتصاديّة، ومخفِّفًا الإنتاج الصّناعي والزّراعي والعمراني، ومعطِّلاً المواصلات البريّة والبحريّة والجويّة. بدورِها تأثّرت مسيرة العلاقات الإسلاميّة والمسيحيّة بتَبِعات الوباء أسوَةً بسائر القطاعات الحياتيّة لأنّها عملٌ تواصليٌّ بامتياز. والمتَتَبِّعُ لهذه المسيرة الحواريّة يَستَشِفُّ التطوّرات المستجدّة عليها بسبب الوباء، والمتأرجحة بينَ تبدُّلاتٍ إيجابيّة وأُخرى سلبيّة بحسب المثل الشّعبي: «رُبَّ ضارَّةٍ نافِعَة»، أو الآية القرآنيّة: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد عُرِفَت من هذه المتبدِّلات المتلاحقة، أربعة تطوّراتٍ منظورة كَمُنَت في: توقُّف اللقاءات الحواريّة، تراجع الأعمال العنفيّة، تعزيز التعاون المشترك، ومحاولة توحيد القلوب.

١,١- توقُّف اللقاءات الحواريّة:

من المعلوم أنَّ النّشاط الحواري يقوم على التقاء أفرادٍ أو جماعاتٍ للتباحث في قضايا تفعِّل التقارب الفكري والإنسانيّ وتنشر لغَةَ الحوار ومنهجيته وأسسه بين الدّيانات وخصوصًا بين المسلمين والمسيحيين. ولأنَّ الوقاية من الوباء تُحَتِّمُ التّباعد الإجتماعي، فقد أدّى ذلك إلى تعليقِ اللقاءات والمحاضرات والمؤتمرات الحواريّة المزمع انعقادها خلال السنة الحالية. فعلى سبيل المثال، أجَّل «الفريق العربي للحوار الإسلاميّ - المسيحيّ» (**ArabGroup for Muslim-Christian Dialogue**)[٢]

دعوته إلى لقاءٍ تشاوري مصغّر كان من المفترض انعقاده منتصف شهر آذار في قبرص. ومثله خطت جمعيّاتٌ وجامعاتٌ وأنديّةٌ ثقافيّة ومنظّماتٌ عالميّة، فألغت برامجها الحواريّة ومناهجها الأكاديميّة.

وبالرُّغم من أنَّ تعليق المؤتمرات والاجتماعات الحواريّة قد لا يُحدِثُ في المدى المنظور تمايُزًا واضحًا في مسير العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة، غير أنَّ الخوف يبقى من التغيُّب التدريجي عن مجتمعاتنا لثقافة الحوار والتربية عليها نتيجة التباعد الحاصل، خصوصًا أنَّ المسيرة الحواريّة «المنظَّمة» بين الديانتين في العصور الحديثة، تمثَّلت بلقاءاتٍ جامعة ومشتركة قبل وبعد بزوغ مفهوم «الحوار بين الأديان» عقب المجمع المسكوني الفاتيكاني الثّاني[٣]. فأوّلُ مؤتمرٍ إسلامي - مسيحي عُقِدَ في بحمدون (قضاء عاليه-لبنان) بين ٢٢ و٢٩ نيسان ١٩٥٤م، بمبادرة من «الأصدقاء الأميركان للشّرق الأوسط» (**American friends of the Middle East**)[٤]، تلته سلسلة لقاءاتٍ ومؤتمراتٍ محليّة وعالميّة، كان لها الأثر الطيِّب في إرساء التواصل السّليم بين المسلمين والمسيحيين[٥].

هذا التوقُّف القسري والسّلبي عن تنظيم اللقاءات الجامعة المطوِّرة للحوار بين الديانتين، يُحَتِّم على الشّخصيات الحواريّة وعلى النّاشطين في مجال العلاقات الإسلاميّة والمسيحيّة، السّعي لتفعيل «البيانات المشتركة»[٦] الصّادرة عن المؤتمرات واللقاءات الحواريّة منذ لقاء بحمدون حتى يومنا، وذلك بالعودة إلى نصوصها والإضاءة عليها عبر البرامج الإعلاميّة ووسائل التّواصل الاجتماعي خلال هذه الفترة. فهذه البيانات تُشَكِّلُ لوحةً متكاملة بما تتضمنه من عناصر حواريّة سواء على صعيد الإيمان والقيم الروحيّة، أو على صعيد الأخلاقيّات أو في المجال الثّقافي والاجتماعي

والسياسي. وبالتّالي يُمكن للمتمعِّن فيها وبنودها أن يغرف من لغّتها، ويَلِج الفكر الحواري، ويستَشِّف ديناميكيّة المحاور التي تناولتها هذه البيانات والتي تعكس خروجًا على نمط الحوار الجاف العادي، ليلاصق الواقع الرّاهن.

٢,١- تراجع الأعمال العنفيّة:

منذ نشأة الدِّيانات وتنظيمها التدريجي، تنامت النّزعة الأصوليّة عندَ الإنسان وما يرافقها من تزمُّتٍ ومن تعصُّبٍ دينيٍّ كمحاولةٍ تشدديّة للمحافظة على أصول العقيدة ومبادئها، خصوصًا في أزمنة القلق والمتغيِّرات[٧]. وفي حين أنّ الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة شهدتا تقارُبًا مقبولاً منذ نشأة الإسلام بفضل دعوة القرآن للمسلمين إلى الحوار مع أهل الكتاب بأنَّ: ﴿**وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ**﴾ [العنكبوت:٤٦]، فإنَّ العلاقات المسيحيّة والإسلاميّة ما زالت لحينه تتأرجَح بين الخلاف العميق والحوار الهادف البنّاء. ولا يكمن هذا الخلل الحواري بالفروقات العقائديّة والتشعُّبات الثقافيّة والحضاريّة فقط، بل بتوظيف الدّين في المخططات السياسيّة والاستعماريّة كما يقول الفيلسوف والمؤرِّخ رينيه جيرارد **(Rene Girard)** بأنّه: «بِقَدْر ما يحمينا الدين من العنف يَنشد العنف حمايته في أحضان الدين»[٨].

فبالرّغم من وفرة النّشاطات الحواريّة في بدايات القرن الحادي والعشرين ميلادي السّاعية لخلقِ عَالَمٍ أفضل ومجتمعٍ أكمل، عادت التحدّيات المتنوِّعة الناتجة من تنامي الأصوليات الدينيّة لتشكِّل عائقًا بوجه هذه العلاقات. فأحداث الوطن العربي وما تبعها من سيطرة قوى الإرهاب في سوريّا والعراق، كرّست الانقسام السنّي - الشّيعي، وقلّصت المساحات المشتركة التي كانت تجمع أبناء الطّوائف المختلفة، وحصرت هذ الطّوائف في مقاطعاتٍ جغرافيّةٍ منعزلة، وعرّضَت أبنائها للنّزوح

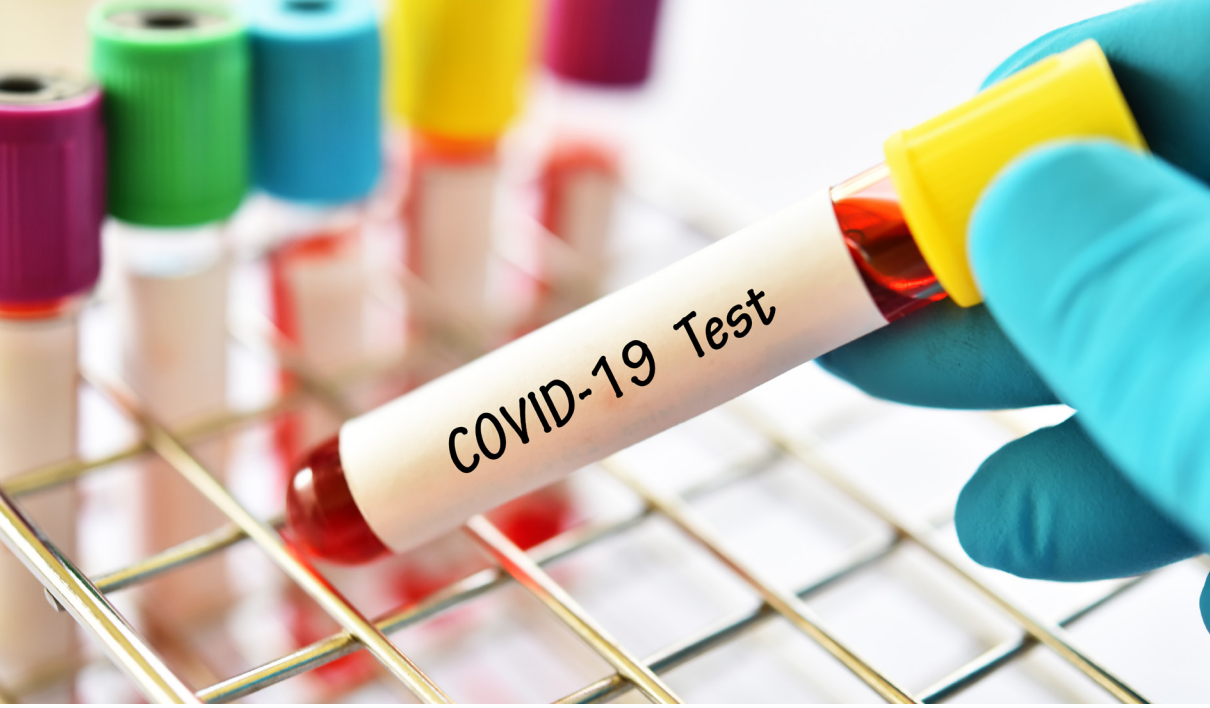

والتّهجير والإلغاء باسم الدّين، لاسيّما الأقليّات منها. وزيادة أعداد المهاجرين المسلمين في الغرب، أدّت إلى تصاعد موجات التطرّف في البلدان الأوروبيّة تجاه هؤلاء المهاجرين، وعدم التمييز بين الإسلام والإرهاب نتيجة أحداث الحادي عشر من أيلول ألفين وواحد في أميركا، حمَّلَ المسلمين وزر الأعمال العنفيّة في العالم ونمّى في النّفوس «الإسلاموفوبيا» (الرُهاب العدائي من الإسلام) وما تبعها من رفضٍ للآخر وخطابٍ مزدهر وعالي النبرة. أضف إلى ذلك تراجع القضيّة الفلسطينيّة إلى مرتبةٍ متأخِّرة من اهتمامات الشّعوب ولدى الدول والأنظمة، واستمرار اسرائيل في عدوانها واحتلالها وتشريعها لقانونٍ يُكرِّس التمييز العنصري بحق العرب في فلسطين، ومباركة الرّاعي الأميركي لخطوات التّهويد بعد الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل.

لكنَّ الملاحظ أنَّ الأعمال العنفيّة والإرهابيّة وما يعقبها من قتلٍ باسم الدين وتهجيرٍ واغتصابٍ للحقوق، قد تراجعت بشكلٍ

ملحوظ سواء في الدّول العربيّة أو الأوروبيّة غداة انتشار وباء الكورونا، وباتت الأمور الخلافيّة والقضايا المتنازع عليها طيّ النسيان أو الإهمال غير المقصود أو التأجيل لحين زوال أزمة الوباء. وفي هذا تطوُّرٌ إيجابي يدُلُّ على أن المصير المشترك بما فيه من حمايةٍ من الوباء هوَ الجامع الإنساني الموحِّد العقول والمهدِّىء النّفوس.

١,٣ – تعزيز التعاون المشترك:

من التطوّرات الإيجابيّة السّريعة التي تركها الوباء، تفعيل التعاون المشترك بين شعوب الأرض قاطبة، بغية معالجة المرضى وإيجاد لقاحٍ أو دواءٍ. فالصوَر المؤثِّرة والمشوِّقة التي قدّمها لنا الواقعُ الآنيّ عن التكاتف الإنساني خصوصًا ما بين المسيحيين والمسلمين في الغرب لمواجهة الوباء، ساعدتنا في استشراف هذا التعاون المشترك المستجدّ بغية إنقاذ البشريّة عملاً بالمثل الشّعبي اللبناني: «المصيبة بتجْمَع»؛ ومن هذه الوقائع برزت ثلاثة مشاهد:

المشهد الأوّل من فرنسا حيث نشرت القنصليّة اللبنانيّة في مارسيليا أسماء الفريق البحثي الّذي يقوده البروفسور ديدييه راوول (Didier Raoult) بغية إيجادِ علاجٍ فعّال للوباء، والمؤلَّف من تسعة عشر باحثًا، بينهم خمسة عشرَ لبنانيّا من طلاّب الطّب من المسلمين والمسيحيين وهم: أماندا شامية، رانيا فرنسيس، غابريال حدّاد، ريتا جعفر، ليندا أبو شقرا، ريم عبد الله، ريتا زغيب، أحمد إبراهيم، جولي درغام، هبة بدر، أليسا حمود، ريم عيواظة، حسين عناني، جمال سعد وعادل أزعور؛ بالإضافة إلى ثلاثة طلاب ماستر بحثي هم بيرلا أبو عتمة، بيات معتوق ورولان عازوري[٩].

يعمل هؤلاء الباحثون بصمت في كواليس الانتصار على كورونا واصلين الليل بالنّهار للخروج بعلاجٍ للبشريّة، فلا يمكنهم التطرّق إلى أي تفاصيل تتعلّق بالعمل البحثي الدقيق جداً، منعًا

لخـرق الأخـلاق المهنيـة والأسرار الخاصّة بالاختبارات[١٠].

المشـهد الثّـاني مـن بريطانيـا، وتحديـدًا مـن مراسـم تشـييع الطّبيـب الليبـي الصّـادق الهـوش حيـثُ اصطـف عـلى جانـب الطرقـات زمـلاؤه البريطانيون وغيرهـم ومعهـم حشـدٌ كبـيرٌ مـن النّـاس مـن جنسـيّاتٍ مختلفـة لوداعـه في جنـازةٍ مؤثِّـرة بعـد انضمامـه إلى ضحايـا فـيروس الكورونـا، نتيجـة مداواتـه للمـرضى[١١]. والهـوش مـن مواليـد طرابلـس الليبيّـة سـنة ١٩٦١م، ومتخـرِّج مـن كليّـة الطـب فيهـا سـنة ١٩٨٧م. عمـل أوّلاً في مستشـفى طرابلـس المركـزي حتـى سـنة ١٩٩٢م، ثـمّ سـافر إلى بريطانيـا لإكـمال دراسـته في تخصّـص جراحـة العظـام، وبقـيَ فيهـا مـزاولاً الطّـب في مستشـفياتها حتـى تاريـخ وفاتـه[١٢]. وقـد وصفـه أحـد زملائـه مـن الأطبـاء البريطانيـين المسـيحيين بأنّـهُ كان أحـد الجرّاحـين المحبوبـين والمحترمـين والمعروفـين، وأنّـه كان شـغوفًا بمسـاعدة أيّ شـخصٍ كان، حيـث اشـتهر بجملتـه التـي رددهـا دومًـا: «سـأتدبَّر الأمـر»[١٣]. وبعـد وفاتـه، أطلـق زمـلاؤه حملـة تبرّعـات لمسـاعدة أسرتـه، خصوصًـا أنّـه أبٌ لأربعـة أبنـاء، وابنـه البكـر يرغـب بدراسة الطب كوالده[١٤].

واللافـت أيضًـا أن أول خمسـة أطبـاء فقـدوا حياتهـم بسـبب فـيروس كورونـا المسـتجد في بريطانيـا هـم أطبـاء مسـلمون، كانـوا في الخـط الأمامـي لمواجهـة الوبـاء الـذي نـال منهـم في أثنـاء قيامهـم بواجبهـم المهنـي لمسـاعدة المـرضى المصابـين بالفـيروس، وهـم: البروفيسـور المـصري سـامي شوشـة والدكتـور العراقـي حبيـب زيـدي، والطبيبـان السـودانيان عـادل الطيـار، وأمجـد الحـوراني، والنيجـيري ألفا سـعادو[١٥]. والأمـر نفسـه حصـل في الـدول الأوروبيّـة حيـث تـوفي أطبـاء عـرب مـن مسـلمين ومسـيحيين نتيجـة مداواتهـم لمـرضى الكورونـا، فيـما تماثل البعض منهم إلى الشّفاء.

تعيدنـا هـذه المشـاهد بالذّاكـرة إلى

نشاط الإرساليّات المسيحيّة في البلدان الإسلاميّة بين النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر والنّصف الأوّل من القرن العشرين.

ففي الواقع، كان للجمعيّات الإرساليّة الغربيّة التي انخرطت في العمل الصحيّ والتربويّ والاجتماعي في المجتمعات الإسلاميّة، فضلٌ كبير في تعزيز التعاون بين المسلمين والمسيحيين وفي تمهيد الطّريق لأعمال المجمع المسكوني الفاتيكاني الثّاني[16]. ومن هذه الجمعيّات على سبيل المثال، «الآباء البيض» (Les Pères Blancs) الّذين تأسّسوا سنة ١٨٦٩م ليعملوا لدى المسلمين، في المغرب العربي، والطوباوي الأب شارل دي فوكو (Charles de Fou-cauld) الّذي أقامَ في الجزائر، وجمعيَتَا إخوة وأخوات يسوع الصِّغار، اللتان أُسِّسَتا في ثّلاثينيّات القرن العشرين للغاية نفسها، فضلاً عن إرساليّاتٍ أُخرى بدأت نشاطها في بلدانٍ إسلاميّة أو ذات غالبية إسلاميّة منذ قرونٍ عدّة، كالآباء اليسوعيين والرّهبان الفرنسيسكان والكبوشيين وغيرهم[17]. بذلت هذه الجمعيّات قُصارى جهدها لكي يُفهمَ الإسلام بموضوعيّةٍ ويُعامَلُ المسلمون بكلِّ الاحترام والتّقدير الواجبين، وتبعًا لروح الإنجيل الّذي يُنادي بأخوّةٍ عالميّة[18].

وكما مَهَّدَ هذا التعاون الإنساني بين المسلمين والمسيحيين لبزوغ مفهوم الحوار في القرن العشرين عقب المجمع الفاتيكاني الثّاني، كذلك قد يكون التكاتف لعلاج مرضى الوباء وإيجاد دواءٍ أو لقاحٍ فعّالٍ له، هما من الوسائل المطوِّرة لمسير العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة آنيًّا ومستقبليًّا بحيث يعود البحث في المصير المشترك، نقطةَ الارتكاز والانطلاق لهذه العلاقات، والمبتدأ والمنتهى الوحيد لمسيرِها، بوصفِهِ أحد أوجه الحوار البنّاءة.

٤، ١ - محاولة توحيد القلوب:

يُعتَبرُ «حوار الإختبار الديني»

الّـذي يتقاسَـمُ فيـه شركاء متجـذِّرونَ في تقاليدهـم الخاصّـة غناهـم الروحـيّ، أحـد أشـكال الحـوار الأربعـة بـين الأديـان، إلى جانـب حـوار الحيـاة وحـوار الأعـمال والحـوار في مجـال الإرث الدينـي[١٩]؛ فتنظيـم الطّقـوس والصّلـوات المشـتركة هـي نشـاطاتٌ ناجحـة عـلى طريـق التّقريـب والمسـيرة الطّويلـة للاتِّحـاد. وقـد سـاهمت أزمـة الوبـاء في تنظيـم صـلاةٍ مشـتركة يـوم الخميـس في الرّابـع مـن شـهر أيّـار / مايـو ٢٠٢٠م، إذ دعـت فيـه اللجنـة العليـا للأخـوّة الإنسـانيّة المنبثقـة عـن وثيقـة «الأخـوّة الإنسـانيّة مـن أجـل السّـلام العالمـي والعيـش المشـترك»، جمـوع النّـاس حـول العـالم للصّـلاة والصّيـام والدّعـاء مـن أجـل الإنسـانيّة لخلاصهـا مـن جائحـة كورونا.

لَقِيَـت هـذه المبـادرة اسـتجابةً وتفاعلاً كبـيرًا مـن الرّؤسـاء والقـادة والمنظّمات الدوليّـة والإقليميّـة والمؤسّسـات الدينيّـة، بالإضافـة إلى ترحيب شـعبي، واعتُـبِرَت إحـدى أبـرز الخطـوات الفعَّالـة في تجسـيد إيـمان المسـيحيين والمسـلمين بـالله الواحـد، وفي إرسـاء لغـة التفاهـم والمحبّـة ونبـذ العنـف والتعصُّـب، وفي تجديـد مسـيرة الحـوار الدينـي لبلـوغِ غاياتهـا السـلاميّة[٢٠]. وقـد سـبق لهـذه اللجنـة تأكيدهـا أن الفـيروس كغـيره مـن الأزمـات الصحيـة التـي شـهدها العـالم سـينحسر في النهايـة، لكـن يجـب التأكُّـد مـن أن آثـاره عـلى الإنسـانية تتـم معالجتهـا والوقايـة منهـا في المـرّات المقبلـة، فـلا يمكـن القبـول مثـلاً بالعنصريـة وكـره الأجانـب وتوظيـف المـرض في إنتـاج أفـكار أكثـر مرضـاً، ولغـة كريهـة في سـياق تبرير الغضب والخوف من الآخر[٢١].

إلى جانـب هـذه الخطـوات الحواريّـة، خطـوةٌ لافتَـةٌ أُخـرى فرضهـا الواقـع الحـالي تمثّلـت بكـسر بعـض الأعـراف أو المسـلّمات التاريخيّـة والحضاريّـة، ودلَّـت في مضامينهـا المعـبِّرَة عـلى تطـوِّرٍ حـواريّ مـشرق بـين المسـلمين والمسـيحيين. فبسـبب انتشـار الوبـاء

وتوقُّف حركة الطيران، دُفِنَ ولأوَّلِ مرَّةٍ في الخليج رجل دينٍ مسيحي هوَ الأب يوسف يوسف لبنانيّ الأصل والمنتمي إلى رهبانيّة الإخوة الأصاغر الكبوشيين، وذلك بعد وفاته بالكورونا في خلال خدمته للجالية المسيحية في دبي؛ علمًا أنَّ بلديّة دبي خصّصَت مدافن للمسيحيين وكنيسة في منطقة جبل علي[٢٢].

فهذا التطوّر إلى جانب التطوّرات الثّلاثة السّابق ذكرها، وإن بدت خجولةً نسبيًّا، لكنّها تَدُلُّ على تَقَدُّمٍ ملموسٍ في مجريات العلاقات التواصليّة بين المسيحيين والمسلمين، لأنَّ الحوار الديني هوَ مسيرةٌ هادئة، رصينة وبطيئة؛ تمامًا كحالِ الإنسانِ بكُلِّ أبعادِهِ الجسديّة والنفسيّة والروحيّة وما يُرافِقهُ من تقلُّباتٍ مزاجيّة وحياتيّة تُساعده على النمو السّليم. والمتابع لمسيرة هذه العلاقات التاريخيّة، يقرأُ في سطورها التغيُّر المسلكي الطّارىء عليها ويَستَشِّفُ إلى جانب التطوّرات المنظورة، تطوّراتٍ مرتقبة علّها تكون ممهِّدًا لمستقبلٍ حواريٍّ مزهر.

٢- التطوُّرات المرتقبة:

من الصّعب جدًّا التكهُّن بمستقبل العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة أو السّعي لرسم واقع الحوار الديني بعد جائحة الكورونا ومخلّفاتها، لأنّه ولحين كتابة هذه الأسطر ما زالت الصّورة قاتمة سواء من ناحية معرفة مسببات هذا المرض أو كيفيّة معالجته أو في سبل اكتشاف دواءٍ ولقاحٍ لمعالجته. غير أنّ القراءة المتأنية لمعاني الحوار وأهدافه وللمسيرة الحواريّة تمهِّد ولو يسيرًا في الإطلالة على الغد المرتقب المتمثِّل ربما بولادةٍ إنسانيّةٍ جديدة قد تؤدّي إلى تعزيزٍ متين أو تجسيدٍ للعيش المشترك بغية الوصول إلى عالمٍ أفضل.

١,٢- ولادةٌ إنسانيّةٌ جديدة:

عَرَفَت البشريّة أحداثًا متنوِّعَةً ساهمَت بطريقةٍ أو بأخرى في تطوير الفكر الإنساني ونموّه في معارِج الرّوح والحكمة. فعلى سبيل المثال، كان القلق من الموت في عصور ما قبل التّاريخ، دافعًا لابتكار طريقة الدّفن وبالتّالي للثّقافة، بحسب عالِم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي إدغار موران **(Edgar Morin)** الّذي اعتبر أنَّ الثّقافة وُلِدَت مع دفن الميت، لأنّها دفعت الكائن البشريّ إلى استنباط الطرق العلميّة والماديّة للتّعامل مع الجسد الفاقد الحياة؛ فالاهتمامات الأولى للإنسان الحكيم **(Homo Sapiens)**، تمركزت حول تكفين الميت ودفنه[٢٣].

وإلى جانب ذلك، شكّلت أساليب مواجهة الطّاعون عند الشّعوب الكنعانيّة - الفينيقيّة حضارَةً أخلاقيّةً جديدة، ميّزتها في تعاطيها مع الآخرين. فبخلاف الشّعوب القديمة التي كانت تُضَحّي بالغرباء أو بالأسرى أو بالعبيد، قَدَّم الكنعانيّون، أطفالهم، ذبائِحَ بشريّةً للإله لدرء المخاطر في لحظات تفشّي الأوبئة والأمراض، وخصوصًا الطّاعون[٢٤]. وفي هذا دلالةٌ على رغبة الشّعور بالمشاركة مع قوى الغيب ونظام الأخذ

والعطاء منها، وعلى افتداء الجماعة ببذل الذّات أو من الذّات؛ إنّه تصرُّفٌ إنسانيّ عميق فيه قسوة على الذّات وليس بربريّة نحو الآخرين، وبخاصّة أنَّ الطِّفل لم يكن يدرك مصيره ليتألّم له قبل حدوثه كتألُّم الأبّ والأُمّ وهما يضحيّان بأيديهما ابنًا لهما في النّار[٢٥].

أَثَّرَ هذا الطّقس الديني القاسي رويدًا رويدًا على أخلاقيات الإنسان الكنعاني - الفينيقي، فهوَ كما كان يُعطي ابنه لقوى الغيب كي يأخذ منها طمأنينته من إبعاد الطّاعون والموت، كان يعطي سِلَعَه للغرباء والبدائيين ويأخذ مقابلاً لها ما عند هؤلاء من سِلَعٍ؛ فيما الأحاسيس ذاتها التي تربطه بالآلهة كانت تتشكَّل بأشكالٍ أخرى، فتربطه بالآخرين وتُسَيِّرُهُ في هديها خلال وقائع يوميّاته، وفق ما روى هيرودوت عن تجارة الفينيقيين بأنَّ أرقى مفاهيم الأخلاق كانت تسود معاملات هذه التجارة[٢٦].

هذه الأحداث التاريخيّة وما رافقها من تغيُّرٍ فكري ومجتمعي أثناء مواجهة الوباء والموت، قد تساعدنا في رسم المستقبل الغامض بعد الكورونا. فهل سيكون الغد حواريًّا مشرقًا فيه المزيد من التطوّرات الإيجابيّة كتلكَ التي أحدثها القلق من الطّاعون في المجتمعات الفينيقيّة على سبيل المثال، أم ستتجه الأمور نحو الأسفل بما فيه من إحباطٍ وانغلاقٍ وعنفٍ؟

من المعلوم أنَّ الواقع الديني في العالم المعاصر لم يكن على ما يرام، فالعولمة وما رافقها من حداثةٍ وتكنولوجيا ووسائل تواصلٍ رقميّة فرّغت الدّين من معانيه الحقيقيّة وأهدافه السّامية وجعلته مظهرًا اجتماعيًّا جامدًا، مزيلةً عنه الأبعاد الروحيّة والإنسانيّة والثقافيّة. وتأثّرت العلاقات الحواريّة بين الأديان وتحديدًا المسيحيّة والإسلام بهذه التحوّلات التي طاولت الدّين في جوهره، لأنَّ كلّ شكل من أشكال النّشاط الاجتماعي يرتبط

بالدّين بطريقةٍ أو بأخرى[٢٧]. فبدل أنْ يؤدّي الدّين رسالته السامية كعاملٍ مساعدٍ في نضج الفرد وفي ترقّيه الرّوحي والسّلوكي، بات فقط طقسًا سحريًّا مهدِّئًا القلق الوجوديّ، ووسيلةً لتوسُّل المتطلِّبات الدنيويّة، وهويّةً مفروضةً بغية الإنتماء المجتمعي. وبالتّالي غابت الرّصانة العقائديّة والعباديّة في كلِّ دين، وانقطع التّواصل بين ثقافة ودين، وغدت المعالم الدينيّة طليقة وعائمة[٢٨].

هذا التحوّل المحوري أثّر بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة في مسار العلاقات الإسلاميّة – المسيحيّة، إذ أغفل القيَم الأخلاقيّة النّابعة من الإيمان ومن بينها القيمة الحواريّة، تاركًا إيّاها رهينةً بين أيادي المفكّرين والباحثين والأكاديميين ورجال الدّين، في الصّروح الجامعيّة والفكريّة وفي باحات دُوْر العبادة، أو فريسةً تحت سيوف الأصوليين والمتزمّتين والإرهابيين، في ساحات الحروب والإقتتال. وكان لا بُدّ من حدثٍ يقلب الموازين موقِظًا الضمائر ومسرِّعًا حركيّة الحوار، حتى حلّ الوباء ضيفًا ثقيلاً على البشريّة، جاعلاً إيّاها في جَزَعٍ وحيرة.

لكنّ هذا الوباء بالرُّغم من

قساوته وشراسته، قد يُضفي على الحوار الديني نفحةَ رجاءٍ، مُنعِشًا العلاقات الإسلاميّة – المسيحيّة في بلوغ غايتها وفي مسيرها صوب الحقِّ والخير والجمال. والصورَة المتوقّعة لمستقبل العلاقات الحواريّة في مرحلة ما بعد الوباء، تبدو مشرقةً وعاملاً مفعِّلاً للحوار البنّاء الهادف، بكونها نابعةً من حسٍّ إنسانيٍّ محض. فكما كان القلق من الطّاعون والموت في عصور ما قبل التّاريخ وفي العصور التاريخيّة عاملاً مطوِّرًا للثقافة وللأخلاق، هكذا سيكونُ الخوف من الكورونا والسّعي لمواجهته، وسيلةً مساعدةً في تطوير الحوار الديني، وخصوصًا الحوار بين المسلمين والمسيحيين.

وهذه الوسيلة الجديدة المرتقبة والمطوِّرة للحوار، ستكون بتخطّيهِ منابر المحاضرين وقاعات المؤتمرات، واستكانته في القلوب النقيّة والعقول المفكِّرة الباحثة عن عالَمٍ أفضل يحيا فيه الإنسان بسعادةٍ تامّة وبكرامةٍ مطلقة، بعيدًا عن الجدالات العقائديّة العقيمة.

فكيف سيكون السّبيل إلى ذلك؟

تُخبر المرويّة[٢٩] عن ولدٍ غير شرعي (لقيط) اسمه جُنيه **(Genet)**، تبنّته عائلة فرنسيّة في الريف، وتميَّزَ بطفولةٍ ملائكيّةٍ حتّى توقَّعَ النّاس منه أن يصبحَ رجل دينٍ في المستقبل. غير أنّه وما إن شبَّ حتى انقلبَ من طفلٍ بريءٍ إلى ولدٍ متمردٍ مرتكبٍ لعدّةِ سرقاتٍ أدخلته السجن، وذلك غداة اكتشافه لحقيقة وجوده بأنّه ولدٌ لقيط رفضته أمّه. فأراد أن يبتعد عن الآخرين ليحمي نفسه من تلك اللعنة، بأنّه ولدٌ غير شرعي؛ وبالتّالي شكّل السّجن بالنّسبة إليه الملجأ البديل لأُمِّه المجهولة، وأصبح هو سجن ذاته وأصبحت ذاته سجنًا له.

وفي يومٍ من الأيّام صمّم على الخروج من هذا السّجن، وأراد أن يتقبَّل نفسه كما هو على حقيقته رافضًا الأنا غير الحقيقيّة، أي رافضًا عدم معرفته لذاته وعيشه

بأنا مزيّفة (استلاب)، فأخذ يبحث عن حلولٍ كالتمرُّد والسّرقة والجنون والانتحار. وفي لحظةٍ مصيريّة اختار أن يحبّ الحياة والتفاؤل، منطلقًا من جديد ومصمِّمًا على الخلق والإبداع في مجال الشعر والأدب. فوضع كتابًا في هذا الموضوع متحدِّثًا فيه عن مأساته، وكان هذا العمل تطهيرًا لذاته من الاستلاب والمرض والانحراف، وتعبيرًا عن إرادة الحياة وسط اليأس، وولادةً جديدةً، واعترافًا بالذّات الحقيقيّة بكلِّ ما فيها من ضعف وقوّة وتشاؤم وتفاؤل.

حال هذا الولد تنطبق على واقعنا الإنساني وقد أعمته المادّة وحضارة الصّورة والتكنولوجيا من اكتشاف ذاته الحقيقيّة بما فيها من أبعادٍ وقِيَمٍ إنسانيّة عميقة. وبالتالي قد يكون القلق من الوباء والتضامن لمواجهته ولمعالجة المصابين به، كما فترة «الحَجر الصّحي» بما فيها من راحةٍ وسكون، من العوامل المساعدة للفرد وللجماعة في إعادة اكتشاف الذّات الإنسانيّة بأبعادها النفسيّة والجسديّة والروحيّة، وفي استنباط القيم الإنسانيّة الصافية بعيدًا عن ضجيج الحياة وصخبها ومتطلِّباتها، كما البحث عن الحياة الحقيقيّة.

لن يكون ذلك بين ليلةٍ وضحاها، لكن الخوف من الوباء يُمَهِّد لذلك دافعًا بالمرء إلى ولوج عمق ذاته والتأمُّل بسرّ الوجود والكينونة وتخطّي الاستلاب الّذي كان يحياه بمسيرةٍ تدريجيّة تقوده إلى تواصلٍ سليم مع الآخر، ثمَّ إلى النور. طبعًا، لا ينفي ذلك الجهود الشخصيّة أو الجماعيّة البنّاءة التي بُذِلَت عبر التّاريخ لتطوير مسار ومصير العلاقات الإسلاميّة والمسيحيّة، من جدالاتٍ دفاعيّة ومصالحاتٍ سلميّة ولقاءاتٍ حواريّة ودراساتٍ مقارنة وحلقاتٍ أكاديميّة وبياناتٍ مشتركة، فكلها مساعٍ حميدة بُذِلَت للمضي قدمًا بالحوار الديني، لكن العودة إلى

الـذّات واستنباط ما فيها من قيمٍ إنسانيّة والسّعي إلى عيشها، تبقى خير مجسِّدٍ للعيش المشترك وللتكاتف الإنساني والتعاضد الأخوي بغية مواجهة الوباء والمضي قدمًا بالحوار.

٢,٢- تجسيد العيش المشترك:

١ يُعتبَرُ تجسيد العيش المشترك من التطوّرات الأخرى المرتقبة في المسيرة الحواريّة بعد الوباء. فالعيش المشترك هو إحدى أبرز الوسائل المساهمة في تطوير مسيرة الحوار الديني بكونه فسحَةً من مساحات حوار الحياة حيث تتمُّ المشاركة في الأفراح والأحزان وسائر الهموم والانشغالات[٣٠]. وبالرُّغم من مساهمة العولمة في تفعيل العيش المشترك من خلال فتح الحدود بين الدول والحضارات والبشر وفي تسهيل تواصل الإنسان مع أخيه، غير أنّ هذا العيش أمسى بحاجةٍ لتجسيدٍ وتعزيزٍ أعمق خصوصًا في عالمنا الآني. ففي أماكن عدّة فشِلَت تجربة العيش المشترك في تقريب المسافات بين «الأنا» و«الآخر»، وفي نزع فتيل العنف والتعصُّب. مردُّ ذلك إلى ما سبق ذكره من تحجُّرٍ إنساني وتقصيرٍ في معرفة الذّات وما يرافقها من نضجٍ روحي وفكري، إلى جانب الخلل في أسس وشروط النشاط التواصلي وأحكامه التي حدّدها الفيلسوف وعالم الإجتماع الألماني المعاصر يورجين هابرماس **(Jurgen Habermas)**، والتي تنصُّ على ضرورة إدخال الأخلاق في التواصل بين الناس[٣١].

لكنَّ الولادة الإنسانيّة المرتقبة ستؤدّي حتمًا إلى تعزيز العيش المشترك وتجسيده، لأنَّها تُبرِزُ القِيَم التي سَتُشَكِّلُ رافِعَةً يَستَنِدُ إليها العيش المشترك. وبالتالي يُصبح البحث المشترك عن القيم الأخلاقيّة المشتركة، خيارًا ضروريًّا وليس ترفًا فكريًّا، كما قالت إحدى المرجعيّات الدينيّة المعروفة بأنَّ الأخلاقيّات أهمّ من الدِّين[٣٢].

هذه القِيَم هي نتاج رؤيةٍ تكامليّة

تبحث عن المعنى في كلِّ مراحل نمو الوعي الإنساني، بكون الإنسان توّاق إلى المعنى، إلى الحكمة والعمق والعناية والاهتمام والكرامة في وجوده اليومي[٣٣]. والمعنى لا يجده الإنسان في العلم لأنّ العلم يسأل عن الشيء الموجود ما هو، ولا يسأل عمّا سيكون أو ما يجب أن يكون، فيعود الإنسان باحثًا عنه في مجالاتٍ أخرى، وبالدّرجة الأولى في الدين الّذي يُقَدِّم إلى الإنسان حكمةً صافية[٣٤]. هذه الحكمة النّابعة من الذّات الإنسانيّة عينها طبقًا لتعريف عالم اللاهوت الألماني الأميركي يواكيم واك (**Joachim Wach**) بأنّ الدين هو أسلوبٌ شامل للحياة يضمُّ الشّخص الكلي واستخدام العقل والعاطفة والإرادة[٣٥]، أو بحسب المثل الشّائع: «لا تُخبرني عن دينِك، بل دعني أراه في سلوكِكَ أو في إنسانيّتك».

لكنَّ السّؤال يبقى عن ماهية القيم الأخلاقيّة المشتركة وعن مدى وكيفيّة التغيّر المرتقب الذي

ستحدثه في مرحلة ما بعد الوباء على صعيد تعزيز العيش المشترك وتفعيله.

من المعلوم أنَّ هناك عناصر مشتركة أخلاقيّة ما بين المسيحيين والمسلمين تَحُثُّ لإنشاء علاقة محبّة بينَ أتباعِ هاتين الدّيانتين من جهّة، ومع باقي الكائنات البشريّة من جهَّةٍ أُخرى. فالمسيحيّة والإسلام قد ساهمتا تاريخيًّا في تنمية المجتمعات البشريّة، ولاسيّما في التعبير عن القيم الأخلاقيّة، التي تجمّدت أحيانًا في تعابير دوغماتيّة تشريعيّة، وانغلقت أمام التغيير الضروري، نتيجة تقاليد وقوانين اجتماعيّة طغت على هذه القيم[٣٦]. وتُعَرَّف هذه القيم بأنّها هي التي يتضمّنها سلوكنا حين يقرُّ بطريقةٍ ملموسة وفعّالة بكرامة الوجود البشري ككلّ[٣٧]. وهي تظهر في سلوكنا تجاه الآخر حين نتعامل مع إنسان لا كأداةٍ مستهلكة ولكن كوجودٍ نبيل يملك قيمة غير قابلة للتبديل، وتظهر أيضًا في تصرّفنا تجاه أنفسنا حين نتعامل مع كرامتنا كقيمةٍ لا نحقّرها على هوانا»[٣٨].

وتتمثَّلُ هذه القيم المتعدِّدة والمتنوِّعة بالعدالة والنّزاهة والشّجاعة والمصداقيّة، والتّعاطف والصّبر والتّعاون والسّلام واحترام البيئة والمسؤوليّة وقواعد السّلوك والانضباط والاعتدال والحريّة والاحترام والكياسة والولاء والعدالة والأمانة والتسامح والمواطنة... ونجدُ في الإنجيل والقرآن صدىً لهذه القيم والممثَّلَة بالإيمان بالله والوفاء بالتزامات العبادة، واحترام الأهل، واحترام الحياة والجنس والعائلة، واحترام ممتلكات الآخر واحترام الحقيقة أساسًا لحياة الجماعة والمجتمع[٣٩].

وبالتالي فإنَّ المسيرة الحواريّة في مرحلة ما بعد الكورونا ستنطلق من جديد من معبر الأخلاقيّات، فيضمّ المسلمون والمسيحيون جهودهم «لتحقيق القيم المشتركة، ولاسيما العدل والسّلام واحترام الخليقة»[٤٠]. وتتم من خلال هذه

القيم معالجة المسائل الأوليّة التي تهمّ الإنسانيّة في الزمن المعاصر ومنها «احترام حقوق الإنسان كافّة»[41]، وخلق نظام أكثر عدالة ومعاملة الإنسان كقيمة بكون الجميع «متساوون لدى الله. إذ هو إله العدالة»[42]. وإلى جانب ذلك، يجهد الجميع على مواجهة المشاكل المشتركة كاللادينيّة والماديّة وأزمة الإيمان، وذلك من خلال «إعطاء الكيان الإنساني بُعده المتسامي، الذي تعترضه جميع أشكال عدم التفهم لأي إيمان، أكان المشجِّع لهذه الأشكال الإيديولوجيّات الماديّة أو التأويلات العلميّة الضيّقة لانتصارات العلم والتكنولوجيا»[43]. ويسعى المسلمون والمسيحيون على التّعاون «مع جميع الذين يعملون بوسائل شرعيّة لأجل إزالة الجوع من العالم وإزالة استغلال الإنسان أخاه، وتغيير نظام الإقتصاد العالمي الحالي، وإحلال السّلام والعدالة بين النّاس، ومساعدة المهجّرين، واحترام الحقوق الدينيّة والإنسانيّة لدى الأقليّات، وخاصةً الحريّة الدينيّة، التي لا يكفي أن تكون تسامحًا»[44].

وهكذا ستعاود العلاقات الإسلاميّة – المسيحيّة مسيرها المثمر في مرحلة ما بعد الوباء، لأنّها تزوّدت بنفوسٍ إنسانيّة صقلها المرض وألهمها القلق، فرجعت إلى دنياها، إلى عمق إنسانيّتها، واستنبطت قيَمًا أخلاقيّة مشتركة مجسِّدَةً للعيش المشترك الحقيقي. وبالتالي سيشهد العالم أنَّ المسيحيين والمسلمين هم معاونو الله في صنع التّاريخ وفي تغيير المجتمع لأنّهم أدركوا قول الكتاب المقدّس والحديث النبوي الشّريف بأنَّ الإنسان مخلوقٌ على صورة الله ومثاله، وبأنَّ الخلق كلّهم هم عيال الله.

ويبقى الأمل...

حاولت من خلال هذه الأسطر ترقُّبَ الغد المرتجى للعلاقات الإسلاميّة – المسيحيّة والّذي أردته مشرقًا عملاً بقول أحدهم: «فكِّر في الخير وسوف يحدث لك، فكِّر

في الشّر وسوف ينال منك... أنت حصاد ما تفكّر فيه طوال اليوم!». وفي حين قد يعتبر البعض أنَّ في هذه الرؤية المستقبليّة الكثير من المبالغة، غير أنّها تبقى الأقرب والأسلم إلى الحقيقة بكونها استندت إلى المسيرة التاريخيّة لهذه العلاقات وما رافقها من تقلُّباتٍ وأحداثٍ طوّرت فيها سلبًا وإيجابًا، وإلى بعض الشّواهد الإنسانيّة والحواريّة الحالية، وإلى مفهوم الحوار الديني بأنّه مسيرةٌ لامتناهية، وجهادٌ وتطلُّعٌ إلى الأُفُق البعيد لبلوغ «المدينة الفاضلة». الحاضر مقلقٌ والمستقبل غامضٌ، خصوصًا إذا ثَبُتَ أنَّ هذا الفيروس ليسَ نتاج الخلل البيئي أو الطّبيعي بل صنيعَةُ الإنسان كما يُحاك، أو أنّ التوصُّل إلى دواءٍ أو لقاح في المدى القريب هو من الأمور الصّعبة والمستحيلة.

وبانتظار الفرج المرتقب والخيرات الآتية تبقى فسحة الأمل بأنَّ الفجر قريب وأنّ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ستواصل تطوّرها الهادىء الرّصين. فاللقاءات الحواريّة المشتركة ستعود إلى المنتديات والجامعات وصروح الفكر والثّقافة، والتربية على الحوار سترجع وبحال أفضل وأشمل إلى المدارس والكنائس والمساجد، وسينتصر العيش المشترك وما يرافقه من قيَمٍ إنسانيّة وأخلاقيّة كوسيلةٍ حواريّة بنّاءة تقود إلى مفهومٍ ديني صحيح ومسلَكٍ إيمانيٍّ سليم كما يقول أحمد شوقي في قصيدته «عيد الدّهر»[٤٥]:

الدينُ لله، من شاءَ الإله هَدى
لكلِّ نفسٍ هوىً في الدينِ داعيها
ما كانَ مختلفِ الأديانِ داعيةً
إلى اختلافِ البرايا أو تعاديها
الكتبُ والرُّسلُ والأديانُ قاطبَةً
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبَّةُ الله أصلٌ في مراشها
وخشيةُ الله أُسٌّ في مبانيها

المصادر والمراجع:

كتب:

- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة من ١٩٥٤م / ١٣٧٣ هـ إلى ١٩٩٢م / ١٤١٢ هـ-- نصوص مختارة، جمعتها جوليات حدّاد، إشراف أوغسطين دوبره لاتور وهشام نشّابة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٥م.
- بشته، أندراوس، ومحمود، طاهر، التّزمُّت والعنف- مظاهرهما - أسبابها - مداخل إلى الحلول الممكنة، نقله عن الألمانيّة كيرلّس سليم بسترس، سلسلة المسيحيّة والإسلام في الحوار والتعاون (٢٣)، المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٤.
- بشروئي، سهيل، ومسعودي، مرداد، تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، ترجمة محمد غنيم، دار السّاقي، بيروت، ٢٠١٢م.
- بورمانس، موريس، توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، ترجمة يوحنا منصور، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٨٦م.
- بولاد، هنري، هدف الحياة ومعناها، طبعة ثانية، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٤م.
- حسن، أبو النور حمدي أبو النور، يورجين هابرماس - الأخلاق والتواصل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م.
- الحوراني، يوسف، لبنان في قيم تاريخه--بحث في فلسفة تاريخ لبنان - العهد الفينيقي، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٢م.
- خلف، سمير، لبنان في مدار العنف--قراءة في تدويل النّزاعات الفئويّة، نقله إلى العربيّة شكري رحيِّم، دار النهار للنّشر، بيروت، ٢٠٠٢م.
- دياب، عيسى، الأصوليّة والتعصُّب والعنف في الإسلام والمسيحيّة، دراسات في الأديان (١)، دار المشرق، بيروت، ٢٠١٢م.
- روا، أوليفييه، الجهل المقدّس--

زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشمر، طبعة ثانية، دار السّاقي، بيروت، ٢٠١٣م.
- زين الدين، أحمد، الديني والدنيوي--قراءة في فكر ميرسيا إلياد، بيسان للنّشر والتّوزيع، بيروت، ٢٠١٨م.
- مجموعة مؤلّفين، واقع الحوار الإسلاميّ المسيحيّ بعد مرور ٤٠ عامًا على صدور بيان المجمع الفاتيكاني الثّاني «في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة»، سلسلة النّدوات الإسلاميّة المسيحيّة (٤)، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٧م.
- مجموعة مؤلّفين، معجم الأديان، ترجمة مركز الدّراسات والأبحاث المشرقيّة في لبنان، المجلّد الأوّل أ - س، منشورات مؤسّسة الكردينال بول بوبار، كريما وميلانو، ٢٠١٦م.
- يعقوب، غسّان، معرفة الذّات والآخر--بحث في الكشف عن أسرار نفسك من خلال وجهك وأحلامك، دار النّهار للنّشر، بيروت، ١٩٧٨م.

Morin, Edgard, L'homme et la mort, Éditions du Seuil, Paris, 1970.

Wach, Joachim, The Comparative Study of Religion, Columbia University Press, New York, 1958.

مقالات:

- دكّاش، سليم، «القيم المشتركة في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة : من أين تبدأ، وكيف تُبنى، وإلى أين تنتهي؟»، المشرق، السنة ٩١، الجزء الثّاني، تمّوز - كانون الأوّل ٢٠١٧م، ص ص. ٣٦٩ - ٣٨٨.
- الرّاعي، باسم ، «عودة الدين بعد تبدُّل مفهوم الفضاء العام في نقاشات غربيّة معاصرة»، المشرق، السنة ٩٣، الجزء الثّاني، تمّوز - كانون الأوّل ٢٠١٩م، ص ص. ٤٧٧ - ٤٩٩.

Haddad, Juliette, "Trente cinq années de rencontre musulmans - chrétiens", Travaux et Jours, N.59, Printemps ,1997, pp. 31 - 47.

مواقع إلكترونيّة:

- «الأطباء المسلمون على خط مواجهة الوباء في أوروبا»، موجود على:
https://www.alquds.co.uk/ الأطباء-المسلمون-على-خط-مواجهة-الوباء/
- «بالصور والفيديو: دفن أول كاهن في الخليج... الأب اللبناني يوسف يوسف وُوري في دبي بعد وفاته بكورونا»، موجود على:
https://www.annahar.com/article/1193042
- سبيتي، فيديل، «كيف غيرت الأوبئة مجرى التاريخ البشري؟--»كورونا»... الفيروس الذي انتصر في مسابقة الهلع العالمية»، موجود على:
https://www.independentarabia.com/node/103991
- «شيخ الأزهر والبابا فرنسيس يرحّبان بدعوة «اللجنة العليا للأخوة الإنسانية»--١٤ مايو ٢٠٢٠ يومًا عالميًّ للصّلاة والدُّعاء لرفع الوباء»، موجود على:
https://www.albayan.ae/one-world/arabs/2020-05-04-1.3849006
- «في موكب مهيب لوداعه.. تعرف على قصة الطبيب الليبي «الصادق الهوش» الذي انضم إلى ضحايا الطواقم الطبية التي حصدتها جائحة»، موجود على:
https://www.facebook.com/SeeOnAR/videos/vb.122361105135046/570581196906114/?type=2&theater
- كولبرت، إليزابيث، «كيف تسهم الجوائح في تشكيل التّاريخ البشري»، ترجمة أحمد زيد، موجود على:
https://www.7iber.com/society/
- «لجنة الأخوة الإنسانية: «كورونا» اختبار للإنسانية والأخلاق»، موجود على:
https://www.alroeya.com/173-76/2118541

لجنة-الأخوة-والإنسانية-كورونا-اختبار-للإنسانية-والأخلاق
- مصطفى، بشير، «خمسة عشرة لبنانيًا ضمن فريق ديدييه راوول لمواجهة كورونا»، موجود على:
https://www.independentarabia.com/node/١١١١٦٦/ الأخبار/ العالم-العربي/ ١٥-لبنانيا-ضمن-فريق-ديدييه-راوول-لمواجهة
- «هل توحد مبادرة «الصلاة من أجل الإنسانية» شعوب العالم رغم اختلاف العقائد؟»، موجود على:
https://www.bbc.com/arabic/inthepress-52679234

الهوامش:

١- حول تأثيرات الأوبئة على الحياة البشريّة، أنظر على سبيل المثال: سبيتي، فيديل، «كيف غيرت الأوبئة مجرى التاريخ البشري؟- -»كورونا»... الفيروس الذي انتصر في مسابقة الهلع العالمية»، موجود على: https://www.independentarabia.com/ node/١٠٣٩٩١/، تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٤/٢١م؛ كولبرت، إليزابيث (Elizabeth kolbert)، «كيف تسهم الجوائح في تشكيل التّاريخ البشري»، ترجمة أحمد زيد، موجود على:
https://www.Yiber.com/society/ ، تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٤/٢٣م.

٢- الفريق العربي للحوار الإسلامي - المسيحي هوَ ثمرة لقاءٍ عُقِدَ في شهر أيّار/مايو من العام ١٩٩٥م حيث تنادى عددٌ من الشخصيّات العربيّة الإسلاميّة والمسيحيّة إلى اجتماعٍ عُقِدَ في بيروت وخُصِّصَ لبحث واقع ومستقبل العلاقات الإسلاميّة - المسيحيّة في العالم العربي. وقد أسفر هذا الإجتماع عن تأسيس الفريق العربي للحوار من شخصيّاتٍ من لبنان وسوريا ومصر والأردن وفلسطين والسّودان والإمارات العربيّة المتحدّة. وأطلق الفريق وما يزال سلسلة مبادراتٍ تخصّ قضايا العيش المشترك والمواطنة وتعزيز أواصر الودّ والتّفاهم بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي وفي العالم كلّه.

٣- في النّصف الثّاني من القرن العشرين، تُوِّجَت المسيرة التواصليّة بين المسلمين والمسيحيين بزوغ مفهوم «الحوار بين الأديان» وذلك عقب قرار البابا بولس السّادس بتأسيس أمانة سرّ خاصة بشؤون الحوار مع الدّيانات غير المسيحيّة ورسالته «في كنيسة المسيح» (Ecclesiam Suam) في ٤ آب ١٩٦٤م، الدّاعية إلى الحوار مع الدّيانات غير المسيحيّة عمومًا ومع اليهود والمسلمين خصوصًا. وقد سبق هذا القرار زيارة حجّ البابا بولس السّادس إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين، في ٣ كانون الأوّل ١٩٦٣م، ومخاطبته اليهود والمسلمين كإخوةٍ وصلهم إرث الإيمان الإبراهيمي، وتلاه موقف الكنيسة الكاثوليكيّة من الإسلام، من خلال تصريح المجمع المسكوني الفاتيكاني الثّاني سنة ١٩٦٥م، في ما خصّ نظرة الكنيسة إلى الدّيانات غير المسيحيّة وعلاقتها بها؛ هذا بالإضافة إلى نشاط لجنة الحوار التّابعة لمجلس الكنائس العالمي: بورمانس، موريس (Maurice Borrmans)، توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، ترجمة يوحنا منصور، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٨٦م، ص ١٦٢؛ مجموعة مؤلّفين، معجم الأديان، ترجمة مركز الدّراسات والأبحاث المشرقيّة في لبنان، المجلّد الأوّل أ - س، منشورات مؤسّسة الكردينال بول بوبار (Paul Poupard)، كريما وميلانو، ٢٠١٦م، ص ١١٧٠؛ جبارة، جوزيف، «علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة: آفاق وحدود»، في: مجموعة مؤلّفين، واقع الحوار الإسلاميّ المسيحيّ بعد مرور ٤٠ عامًا على صدور بيان المجمع الفاتيكاني الثّاني «في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة»، سلسلة النّدوات الإسلاميّة المسيحيّة (٤)، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ص ٢٩ - ٣١ (مع الحاشية).

٤- Haddad, Juliette, "Trente cinq années de rencontre musulmans - chrétiens", Travaux et Jours, N ٥٩, Printemps ١٩٩٧, p.٣٢.

٥- بورمانس، المرجع السّابق، ص ص. ١٦٤ - ١٦٧.

٦- سعت جامعة القدّيس يوسف - بيروت من خلال معهد الدّراسات الإسلاميّة والمسيحيّة إلى توثيق وجمع هذه البيانات منذ مؤتمر بحمدون حتى سنة ٢٠١٢م، بسعي المغفور لهم الأب أوغسطين دوبره لاتور اليسوعيّ (Augustin Dupré la Tour)، الدكتور هشام نشّابه والسيّدة جولييت نصري حدّاد. وقد تضمّنت المجلّدات الوثائق الأساسيّة الموضوعة في ختام اللقاءات والمؤتمرات التي اعترفت بها رسميًّا مجموعة السلطات الدينيّة في الدّيانتين، بالإضافة إلى جدول تحليليّ للمواضيع التي ذُكِرَت في البيانات، ولائحة زمنيّة لجميع اللقاءات المشتركة، مع تاريخها ومكان انعقادها والموضوع المختار لها وعدد المشاركين فيها، والعلاقة بين لقاء ولقاء عند وجودها. أنظر على سبيل المثال، المجلّد الأوّل: البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة من ١٩٥٤م / ١٣٧٣ هـ إلى ١٩٩٢م / ١٤١٢ هـ-- نصوص مختارة، جمعتها جوليات حدّاد، إشراف أوغسطين دوبره لاتور وهشام نشّابة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٥م.

٧- للتعمُّق أكثر بمفهوم الأصوليّة وتاريخها في المسيحيّة والإسلام، أُنظُر على سبيل المثال: دياب، عيسى، الأصوليّة والتعصُّب والعنف في الإسلام والمسيحيّة، دراسات في الأديان (١)، دار المشرق، بيروت، ٢٠١٢م؛ بشته، أندراوس (Andreas Bsteh)، ومحمود، طاهر، التّزمُّت والعنف--مظاهرهما - أسبابهما - مداخل إلى الحلول الممكنة، نقله عن الألمانيّة كيرلّس سليم بسترس، سلسلة المسيحيّة والإسلام في الحوار والتعاون (٢٣)، المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٤م.

٨- عن: خلف، سمير، لبنان في مدار العنف--قراءة في تدويل النّزاعات الفئويّة، نقله إلى العربيّة شكري رحيّم، دار النهار للنّشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٧٥.

٩- مصطفى، بشير، «خمسة عشرة لبنانيًا ضمن فريق ديدييه راوول لمواجهة كورونا»، موجود على:
/ ١١١١٦٦/الأخبار/العالم-العربي/١٥-لبنانيا-ضمن-فريق-ديدييه-راوول-لمواجهة https://www.independentarabia.com/node
تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٥/٥م.

١٠- المرجع نفسه.

١١- «في موكب مهيب لوداعه.. تعرف على قصة الطبيب الليبي «الصادق الهوش» الذي انضم إلى ضحايا الطواقم الطبية التي حصدتها جائحة»، موجود على:
.theater&٢=type?/٥٧٠٥٨١١٩٦٩٠٦١١٤/١٢٢٣٦١١٠٥١٣٥٠٤٦.https://www.facebook.com/SeeOnAR/videos/vb
تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٥/٥م.

١٢- المرجع نفسه.

١٣- المرجع نفسه.

١٤- المرجع نفسه.

١٥- «الأطباء المسلمون على خط مواجهة الوباء في أوروبا»، موجود على:
https://www.alquds.co.uk /الأطباء-المسلمون-على-خط-مواجهة-الوباء/
تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٥/٥م.

١٦- أبو جوده، صلاح، «واقع الحوار الإسلامي المسيحي عشيّة المجمع الفاتيكاني الثّاني»، في: مجموعة مؤلّفين، واقع الحوار الإسلاميّ المسيحيّ بعد مرور ٤٠ عامًا على صدور بيان المجمع الفاتيكاني الثّاني «في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة»، المرجع السّابق، ص ٢٧.

١٧- أبو جوده، المرجع نفسه، ص ٢٧.

١٨- أبو جوده، المرجع نفسه، ص ٢٧.

١٩-مجموعة مؤلّفين، معجم الأديان، المرجع السّابق، المجلّد الأوّل، ص ١١٧١.

٢٠- أُنظُر على سبيل المثال : «شيخ الأزهر والبابا فرنسيس يرحّبان بدعوة «اللجنة العليا للأخوة الإنسانية»--١٤ مايو ٢٠٢٠ يومًا عالميًّ للصّلاة والدُّعاء لرفع الوباء»، موجود على: https://www.albayan.ae/one-world/arabs/٢٠٢٠-٠٥-٠٤-٠٦-١,٣٨٤٩٠٠، تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٥/٢٢م؛ و«هل توحد مبادرة «الصلاة من أجل الإنسانية» شعوب العالم رغم اختلاف العقائد؟»، موجود على: https://www.bbc.com/arabic/inthepress-٥٢٦٧٩٢٣٤، تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٥/٢٢م.

٢١- «لجنة الأخوة الإنسانية: «كورونا» اختبار للإنسانية والأخلاق»، موجود على:
https://www.alroeya.com/١٧٣-٧٦/٢١١٨٥٤١-لجنة-الأخوة-والإنسانية-كورونا-اختبار-للإنسانية-والأخلاق
تمّت معاينته في ٢٠٢٠/٥/١٢م.

يشار إلى أن اللجنة العليا للأخوة الإنسانية تشكّلت العام الماضي لمتابعة تحقيق أهداف وثيقة الأخوة الإنسانية التي وقعها كل من قداسة البابا فرنسيس بابا الكنيسة الكاثوليكية وفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف رئيس مجلس حكماء المسلمين في فبراير من عام ٢٠١٩م.

وتتولى اللجنة مهام وضع إطار عمل لضمان تحقيق أهداف الوثيقة، والعمل على إعداد الخطط والبرامج والمبادرات اللازمة لتفعيل بنودها ومتابعة تنفيذها على المستويات الإقليمية والدولية كافة وعقد اللقاءات الدولية مع القادة والزعماء الدينيين ورؤساء المنظمات العالمية والشخصيات المعنية لرعاية ودعم ونشر الفكرة التي ولدت من أجلها هذه الوثيقة التاريخية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك.

٢٢- أُنظُر على سبيل المثال: «بالصور والفيديو: دفن أول كاهن في الخليج... الأب اللبناني يوسف يوسف وُوري في دبي بعد وفاته بكورونا»، موجود على: https://www.annahar.com/article/١١٩٣٠٤٢، تمّت معاينته في: ٢٠٢٠/٥/٢٢م.

٢٣- Morin, Edgard, L'homme et la mort, Éditions du Seuil, Paris ,١٩٧٠ ,pp. ٢٧٧ - ٢٩٥.

٢٤- الحوراني، يوسف، لبنان في قيم تاريخه--بحث في فلسفة تاريخ لبنان - العهد الفينيقي، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٩٧، ٩٨.

٢٥- الحوراني، المرجع نفسه، ص ٩٨، ٩٩.

٢٦- الحوراني، المرجع نفسه، ص ١٠٠.

٢٧- زين الدين، أحمد، الديني والدنيوي--قراءة في فكر ميرسيا إلياد، بيسان للنّشر والتّوزيع، بيروت، ٢٠١٨م، ص ٣٧.

٢٨- روا، أوليفييه (Olivier Roy)، الجهل المقدّس--زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشمر، طبعة ثانية، دار السّاقي، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٤٧.

٢٩- بتصرّف عن: يعقوب، غسّان، معرفة الذّات والآخر--بحث في الكشف عن أسرار نفسك من خلال وجهك وأحلامك، دار النّهار للنّشر، بيروت، ١٩٧٨م، ص ص. ١٦ - ١٧.

٣٠- مجموعة مؤلّفين، معجم الأديان، المرجع السّابق، المجلّد الأوّل، ص ١١٧١.

٣١- حسن، أبو النور حمدي أبو النور، يورجين هابرماس - الأخلاق والتواصل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ١٥٠، ٢٦٣.

٣٢- دكّاش، سليم، «القيم المشتركة في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة : من أين تبدأ، وكيف تُبنى، وإلى أين تنتهي؟»، المشرق، السنة ٩١، الجزء الثّاني، تمّوز - كانون الأوّل ٢٠١٧م، ص ٣٧٢.

٣٣- الرّاعي، باسم ، «عودة الدين بعد تبدُّل مفهوم الفضاء العام في نقاشات غربيّة معاصرة»، المشرق، السنة ٩٣، الجزء الثّاني، تمّوز - كانون الأوّل ٢٠١٩م، ص ٤٩٥.

٣٤- الرّاعي، المرجع نفسه، ص ٤٩٥.

٣٥- Wach, Joachim, The Comparative Study of Religion, Columbia University Press, New York ,١٩٥٨, p.١٢.

٣٦- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة، المرجع السّابق، «المسلمون والمسيحيون في المجتمع لأجل الإرادة الحسنة والتشاور والعمل معًا في جنوب شرق آسيا»، لقاء هونغ كونغ، ٤ - ١٠ كانون الثاني ١٩٧٤، وثيقة ١١، فقرة ١٦، ص ٧٩.

٣٧- دكّاش، المرجع السّابق، ص ٣٧٤.

٣٨- دكّاش، المرجع نفسه، ص ٣٧٤.

٣٩- دكّاش، المرجع نفسه، ص ٣٧٤.

٤٠- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة، المرجع السّابق، ،»لقاء واشنطن، ٢١ - ٢٢ تشرين الأوّل ١٩٩١»، وثيقة ٢٨، فقرة ٨، ص ١٨١.

٤١- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة، المرجع نفسه، «لقاء القاهرة (مصر)، ١١ - ١٤ نيسان ١٩٧٨»، وثيقة ١٦، فقرة ١١، ص ١٢٢.

٤٢- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة، المرجع نفسه، «قيم الحياة العائلية في المجتمع الحالي، لقاء عمّان، ٢٨ - ٣٠ أيلول ١٩٨٥»، وثيقة ٢٢، فقرة ٦، ص ١٥٤.

٤٣- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة، المرجع نفسه، «المسيحيون والمسلمون العائشون والعاملون معًا: المبادىء الأخلاقيّة والممارسات في حقل البرامج الإنسانيّة والتنمويّة»، كولومبو، سري لانكا، ٣٠ آذار إلى أوّل نيسان ١٩٨٢، وثيقة ٢١، فقرة ١٢، ص ١٤٧.

٤٤- البيانات المسيحيّة الإسلاميّة المشتركة، المرجع نفسه، «لقاء قرطبة لمناسبة المائة الثانية عشرة لجامع قرطبة»، قرطبة (اسبانيا)، ١١ - ١٤ تشرين الأوّل ١٩٨٦، وثيقة ٢٤، فقرة ٨، ص ١٦٢.

٤٥- عن: بشروئي، سهيل، ومسعودي، مرداد، تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، ترجمة محمد غنيم، دار السّاقي، بيروت، ٢٠١٢م، ص ١٩.

السيرة الذاتية للكتاب

علي القره داغي:

(أستاذ دكتور)، علي محي الدين القره داغي، الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وخبير المجامع الفقهية الدولية، ورئيس أو عضو تنفيذي لهيئة الفتوى والرقابة الشرعية لعدد من البنوك الإسلامية، وشركات التأمين التكافلي الإسلامي في دول الخليج العربي، والعالم. حاصل على شهادة الدكتوراه في الشريعة والقانون بجامعة الأزهر الشريف في مجال العقود والمعاملات المالية، عام ١٩٨٥م بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطبع الرسالة وتبادلها بين جامعات العالم. صدر له أكثر من ثلاثين مؤلفاً وكتاباً في مجال الفقه الإسلامي والقانون والشريعة والدراسات الإسلامية والاقتصاد الإسلامي والتنمية وفقه المعاملات المالية وقضايا البنوك الإسلامية والتأمين التكافلي، منها الحقيبة الاقتصادية، ط. دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠١٠، وهي في ١٢ مجلداً. وأكثر من مائة بحث علمي محكم.

شريف الأنصاري:

(دكتور) شريف علي حافظ الأنصاري، من مواليد محافظة البحيرة ١٩٧٤ م، حاصل على ليسانس آداب قسم فلسفة جامعة الإسكندرية، فرع دمنهور سنة ١٩٩٦ م، ودكتوراة في الفلسفة الإسلامية جامعة دمنهور ٢٠١١ م ، بتقدير مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع والتبادل بين الجامعات المصرية. يعمل الآن كبير باحثين بمركز المخطوطات - مكتبة الإسكندرية، له العديد من الأبحاث العلمية والكتب المنشورة وشارك في العديد من المؤتمرات والدورات وورش العمل في مجال فهرسة وتحقيق المخطوطات العربية، ومحاضرات في تاريخ العلوم العربية.

عائشة المناعي:

(أستاذة دكتوة)، عائشة يوسف المناعي، مديرة مركز إسهامات المسلمين في الحضارة بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة حمد بن خليفة - عضو البرلمان العربي بجامعة الدول العربية و مجلس الشورى القطري. ترأس وتعمل كعضو في العديد من اللجان الوطنية والدولية ولها العديد من الكتب والمقالات حول تخصص العقيدة والتصوف والأديان. حاصلة على عدة جوائزوأوسمة منها وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من جمهورية مصر العربية ، وعلى جائزة الخدمة المجتمعية من دولة الإمارات العربية المتحدة ،وحصلت في عام ٢٠١٥ م على جائزة التميز على مستوى دول الخليج العربي وتسلمتها من سمو الأمير/ الشيخ تميم بن حمد آل ثاني . وحصلت على جائزة هنري دافيسون من الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر .

حيدر حبّ الله:

(دكتور) حيدر محمّد كامل حبّ الله، لبناني من مواليد عام ١٩٧٣م. حائز على ماجستير في علوم القرآن والحديث من كلية أصول الدين، ودكتوراه في مقارنة الأديان الابراهيميّة من جامعة الأديان والمذاهب في إيران. أستاذ مادّة تطوّر اللاهوت المسيحي في جامعة الأديان والمذاهب. أستاذ في مواد: الفقه الإسلامي وأصول الفقه وعلوم الحديث والجرح والتعديل في الحوزة العلمية في مدينة قم. صدر له ٢٢ كتاباً والعديد من المقالات. رئيس تحرير سابق لثلاث مجلات فكرية إسلامية تصدر في بيروت، هي: ١. مجلة المنهاج (٢٠٠٢. ٢٠٠٩م)، ومجلة نصوص معاصرة (٢٠٠٥. ٢٠٢٠م)، ومجلة الاجتهاد والتجديد (٢٠٠٦ . ٢٠٢٠م).

بشير خليفي:

(دكتور) أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة معسكر، متحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة وشهادة الماستر في اللغة الانجليزية. رئيس للمجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (٢٠١٣- ٢٠١٩). مُهتم بقضايا الدين (الدراسات القرآنية، حوار الأديان والحضارات، الحوار الإسلامي المسيحي، الإسلام والغرب)، موضوع الهجرة وقضايا اللغة والأدب. له مُشاركات عديدة في ملتقيات وطنية ودولية. من مؤلفاته كتاب الفلسفة وقضايا اللغة. فاز مُؤخرا بالمرتبة الثانية في جائزة قطر العالمية لحوار الحضارات. ديسمبر ٢٠١٩، التي حملت عنوان: (الهجرة في السياق الحضاري).

رامي البنَّا:

(دكتور) رامي إبراهيم البنَّا، عضو هيئة تدريس بقسم العلوم الإسلامية كلية الإلهيات جامعة نوشهير بتركيا، حاصل على دكتوراه في تخصص علم الكلام من جامعة إستانبول، وماجستير في الفلسفة الإسلامية من جامعة القاهرة، له عدد من الأبحاث والكتب المنشورة في الدراسات الإسلامية، كما ترجم من اللغة التركية عدة أبحاث منشورة.

عبّاس الحلبي:

(دكتور) قاضٍ لبناني سابق، رئيس لجنة الثّقافة في الأونيسكو، رئيس الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي، عضو اللجنة الوطنيّة الإسلاميّة المسيحيّة للحوار في لبنان، رئيس سابق للجنة الأوقاف في المجلس المذهبي لطائفة الموحّدين الدّروز.

علاء الدينا ال رشي:

(دكتور) مدير المركز التعليمي لحقوق الإنسان في ألمانيا، مدير جمعية Damaszener Verein e.V في ألمانيا، عضو اتحاد الكتاب العرب سابقا، عضو اللجنة العربية لحقوق الإنسان في باريس سابقاً.عضو رابطة أدباء بلاد الشام في بريطانيا.

COVID-19
PULSE 82
SBP 125
DBP 80
90
49
80
63
85
31
74
59
STATUS: 15% COMPLET
FUNC ATAT : STABLE
TEMP : 104.2